

محاضرات

مقرر: علوم القرآن 1

د. ياسر

المستوى الثالث – دراسات اسلاميه

2015 - 2014

المحاضرة الرابعة بعنوان

جمع القرآن الكريم بمعنى كتابته

النوع الثاني: جمعه بمعنى كتابته وتدوينه:

جمع القرآن الكريم بهذا المعنى ثلاث مرات:

- الجمع الأول: في عهد الرسول ﷺ.
- الجمع الثاني: في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه.
- الجمع الثالث: في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

المراد بالجموع الثلاثة:

وقد يشكل على الذهن كيف يجمع الشيء الواحد ثلاث مرات فإذا كان جُمِعَ في عهد الرسول -ﷺ- فكيف يجمع في عهد أبي بكر -رضي الله عنه- وإذا جمع في عهد أبي بكر ثانية فكيف يجمع ثالثة.

والجواب: أنه لا يراد بالجمع معناه الحقيقي في جميع المراحل. فالمراد بجمع القرآن في عهد الرسول -صلى الله عليه وسلم "كتابه وتدوينه" والمراد بجمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه "جمع في مصحف واحد". والمراد بجمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه "نسخه" في مصاحف متعددة.

ويظهر بهذا أن الجمع بمعناه الحقيقي كان في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وستحدث عن كل مرحلة من مراحل هذه الجمع.

أولاً: جمع القرآن بمعنى كتابته وتدوينه في عهد الرسول ﷺ:

كتاب الوحي:

اتخذ الرسول -ﷺ- عددًا من الصحابة كان إذا نزل عليه شيء من القرآن أمر أحدهم بكتابه وتدوينه ويعرف هؤلاء الصحابة بـ "كتاب الوحي" ومنهم:

لخفاء الأربعة، وزيد بن ثابت، وأبي بن كعب، ومعاوية بن أبي سفيان، ويزيد بن أبي سفيان وخالد بن سعيد بن العاصي وحنظلة بن الربيع، والزبير بن العوام وعامر بن فهيرة، وعمرو بن العاص، وعبد الله بن الأرقم، والمغيرة بن شعبة، وعبد الله بن رواحة، وخالد بن الوليد، وثابت بن قيس، وغيرهم.

صفة هذا الجمع:

وصف هذا الجمع صحابيان جليلان فقال زيد بن ثابت رضي الله عنه: "كنا عند رسول الله -ﷺ- نؤلف القرآن من الرِّقَاع" أي نجمعه لترتيب آياته من الرقاع، وروى عثمان بن عفان -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ: كان إذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من كان يكتبه فيقول: "ضعوا هذه في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا". الحديث.

أدوات الكتابة:

لم تكن أدوات الكتابة ميسرة للصحابة في ذلك الوقت فكانوا يكتبونه على كل ما تناله أيديهم من العُشب "وهي جريد النخل".

- واللِّخَاف: "وهي الحجارة الرقيقة".
- والرقاع: "وهي القطعة من الجلد أو الورق".
- الكرانيف: "وهي أطراف العشب العريضة".
- والأقتاب: "جمع قَتَب وهي الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليركب عليه".
- والأكتاف: "جمع كتف وهي عظم عريض للإبل والغنم".

وكان كتاب الوحي -رضي الله عنهم- يضعون كل ما يكتبون في بيت رسول الله -ﷺ- وينسخون لأنفسهم منه نسخة.

مميزات جمع القرآن في عهد الرسول ﷺ:

1. ثبت في السنة نزول القرآن الكريم على سبعة أحرف ومما ورد في ذلك حديث عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- وفيه قال رسول الله ﷺ: "إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقراءوا ما تيسر منه" وقد كانت كتابة القرآن في عهد الرسول -ﷺ- على الأحرف السبعة.
2. أجمع العلماء على أن جمع القرآن في عهد رسول الله -ﷺ- كان مرتب الآيات أما ترتيب السور ففيه خلاف.
3. بعض ما كتب في عهد الرسول -ﷺ- نسخت تلاوته وظل مكتوبًا حتى توفي رسول الله -ﷺ- وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان فيما أنزل من القرآن: "عشر رضعات معلومات يحرم من" ثم نسخن "بخمس معلومات" فتوفي رسول الله -ﷺ- وهن فيما يقرأ من القرآن.
4. لم يكن القرآن الكريم في عهد الرسول الله -ﷺ- مجموعًا في مصحف واحد، بل كان مفرقا في الرقاع والأكتاف واللخاف وغيرها؛ ولهذا قال زيد بن ثابت رضي الله عنه: "قبض النبي -ﷺ- ولم يكن القرآن جمع في شيء"، وقال أيضًا لما أمر بجمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه: "فنتبعت القرآن أجمعه من العشب واللخاف وصدور

ولعلك تسأل بعد هذا لماذا لم يجمع القرآن في عهد الرسول -ﷺ- في مصحف واحد؟ وقد أجاب العلماء رحمهم الله تعالى على ذلك، وذكروا أسبابًا منها:

1. أن الله تعالى قد أمن نبيه عليه الصلاة والسلام من النسيان بقوله سبحانه وتعالى: ﴿سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾، أي ما شاء أن يرفع حكمه بالنسخ فلا خوف إذن أن يذهب شيء من القرآن الكريم، وأما بعد وفاته صلى الله عليه وسلم فإن النسيان قد يقع فبادر المسلمون إلى جمعه في مصحف واحد.
2. قال الخطابي: "إنما لم يجمع ﷺ القرآن في المصحف لما يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته فلما انقضى نزوله بوفاته ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة.

وقال الزركشي: "وإنما ترك جمعه في مصحف واحد؛ لأن النسخ كان يرد على بعض، فلو جمعه ثم رفعت تلاوة بعض لأدى إلى الاختلاف واختلاط الدين، فحفظه الله في القلوب إلى انقضاء زمان النسخ ثم وفق لجمعه الخلفاء الراشدين".

3. أن القرآن الكريم لم ينزل جملة واحدة، بل نزل منجمًا في ثلاث وعشرين سنة.
4. أن ترتيب آيات القرآن وسوره ليس على حسب ترتيب نزوله،

ولو جمع القرآن في مصحف واحد حينذاك لكان عرضة للتغيير كلما نزل شيء من القرآن.

ولم يكن الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- إذا اختلفوا في شيء من القرآن يرجعون إلى ما هو مكتوب بل كانوا يرجعون إلى الرسول -ﷺ- فيعرضون عليه قراءتهم ويسألونه عنها. وبعد وفاة الرسول -ﷺ- ومقتل بعض القراء من الصحابة دعت الحاجة إلى جمع القرآن في مصحف واحد، فكان ذلك في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

ثانياً: جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

سببه:

بعد وفاة الرسول -صلى الله عليه وسلم- ارتدت بعض قبائل العرب فأرسل أبو بكر -رضي الله عنه- خليفة الرسول -صلى الله عليه وسلم- الجيوش لقتال المرتدين وكان قوام هذه الجيوش هم الصحابة رضوان الله عليهم وفيهم حفاظ القرآن، وكانت حروب الردة شديدة قتل فيها عدد من القراء الذين يحفظون القرآن الكريم، فخشي بعض الصحابة أن يذهب شيء من القرآن بذهاب حفظته ١ فأراد أن يجمع القرآن في مصحف واحد بمحضر من الصحابة.

وقصة ذلك رواها البخاري في صحيحه عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: أرسل إلي أبو بكر -مقتل أهل اليمامة- فإذا عمر بن الخطاب عنده قال أبو بكر رضي الله عنه: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر ٢ يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالموطن فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت لعمر: كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله عليه وسلم. قال عمر: هذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي كنت تكتب الوحي لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- فتتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: هو والله خير فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله

عنهما، فتتبع القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَتَّى خَاتَمَةَ بَرَاءةً، فَكَانَتْ الصَّحْفَ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَيَاتِهِ ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا﴾.

تاريخ هذا الجمع:

هو كما جاء في الحديث بعد معركة اليمامة، وفي السنة الثانية عشرة من الهجرة.

أسباب اختيار زيد بن ثابت رضي الله عنه لهذا الجمع:

ترجع أسباب اختيار زيد بن ثابت لأمر منها:

1. أنه كان من حفاظ القرآن الكريم.
2. أنه شهد العرضة الأخيرة للقرآن الكريم، وقد روى البغوي عن أبي عبد الرحمن السلمي أنه قال: قرأ زيد بن ثابت عن رسول الله -ﷺ- في العام الذي توفاه الله فيه مرتين إلى أن قال عن زيد بن ثابت أنه: "شهد العرضة الأخيرة، وكان يقرئ الناس بها حتى مات، ولذلك اعتمده أبو بكر وعمر في جمعه، و ولاه عثمان كتبة المصاحب رضي الله عنهم أجمعين".
3. أنه من كتاب الوحي للرسول ﷺ.
4. خصوبة عقله، وشدة ورعه، وكمال خلقه، واستقامة دينه، وعظم أمانته ويشهد لذلك قول أبي بكر رضي الله عنه له: "إنك رجل شاب، عاقل، ولا تنتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ" وقوله نفسه رضي الله عنه: "فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن".

منهج زيد في هذا الجمع:

من المعلوم أن زيد بن ثابت رضي الله عنه كان يحفظ القرآن كله في صدره، وكان القرآن مكتوباً عنده ومع هذا فلم يعتمد على ما حفظه ولا على ما كتب بيده، وذلك أن عمله ليس جمع القرآن فحسب، وإنما التوثيق والتثبيت فيما يكتب؛ ولهذا يقول الزركشي رحمه الله تعالى عن زيد:

"وتتبعه للرجال كان للاستظهار لا لاستحداث العلم" وقال ابن حجر رحمه الله تعالى: "وفائدة التتبع المبالغة في الاستظهار والوقوف عند ما كتود امتثالا ذلك فقد قام عمر في الناس فقال: "من كان تلقى من رسول الله -ﷺ- شيئاً من القرآن فليأتنا به".

وقد بين زيد نفسه المنهج الذي سلكه بقوله رضي الله عنه: "فتتبع القرآن أجمعه من العسب والخاف وصدور الرجال". وعلى هذا فإن منهج زيد في جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- يقوم على أسس أربعة:

- الأول: ما كتب بين يدي رسول الله ﷺ.
 - الثاني: ما كان محفوظاً في صدور الرجال.
 - الثالث: أن لا يقبل شيئاً من المكتوب حتى يشهد شاهدان على أنه كتب بين يدي الرسول -ﷺ- قال السخاوي معناه: "من جاءكم بشاهدين على شيء من كتاب الله الذي كتب بين يدي رسول الله ﷺ".
- وقال ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى: "وكان غرضهم أن لا يكتب إلا من عين ما كتب بين يدي النبي -ﷺ- لا من مجرد الحفظ".
- الرابع: أن لا يقبل من صدور الرجال إلا ما تلقوه من فم الرسول -ﷺ- فإن عمر رضي الله عنه ينادي: "من كان تلقى من رسول الله -ﷺ- شيئاً من القرآن فليأتنا به" ولم يقل من حفظ شيئاً من القرآن فليأتنا به.

بين يدي النبي ﷺ

وقد رسم أبو بكر -رضي الله عنه- لزيد المنهج لهذا الجمع فقال له ولعمر بن الخطاب رضي الله عنه: "اقعدوا على باب المسجد، فمن جاءكم بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه،

وقد امتثالا ذلك فقد قام عمر في الناس فقال: "من كان تلقى من رسول الله -ﷺ- شيئاً من القرآن فليأتنا به".

مميزات جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

1. جمع القرآن الكريم في هذا العهد على أدق وجوه البحث والتحري والإتقان على الوجه الذي أشرنا إليه في منهج الجمع.
2. أهمل في هذا الجمع ما نسخت تلاوته من الآيات.
3. أن هذا الجمع كان بالأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن الكريم كما كان في الرقاع التي كتبت في عهد الرسول ﷺ.
4. أن هذا الجمع كان مرتب الآيات باتفاق واختلف العلماء في السور هل كانت مرتبة في هذا الجمع أم أن ترتيبها كان في عهد عثمان رضي الله عنه.
5. اتفق العلماء على أنه كتب نسخة واحدة من القرآن في هذا الجمع حفظها أبو بكر لأنه إمام المسلمين.
6. ظفر هذا الجمع بإجماع الأمة عليه وتواتر ما فيه.

مكانة هذا الجمع:

ظفر هذا الجمع باتفاق الصحابة - رضي الله عنهم - على صحته ودقته وأجمعوا على سلامته من الزيادة أو النقصان، وتلقوه بالقبول والعناية التي يستحقها حتى قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "أعظم الناس أجرا في المصاحف أبو بكر فإنه أول من جمع ما بين اللوحين".

ومع هذا التصريح من علي - رضي الله عنه - فقد زعم قوم أن أول من جمع القرآن هو علي - رضي الله عنه - وقد رد عليهم الألويسي فقال: وما شاع أن عليا - كرم الله وجهه - لما توفي رسول الله - ﷺ - تخلف لجمعه. فبعض طرقه ضعيفة، وبعضها موضوعة، وما صح فمحمول كما قيل على الجمع في الصدر، وقيل: كان جمعا بصورة أخرى لغرض آخر، ويؤيده أنه

قد كتب فيه الناسخ والمنسوخ فهو ككتاب علم. ولهذا روي أن أول من جمعه عمر رضي الله عنه، كما روي أن أول من جمعه سالم مولى أبي حذيفة، أقسم أن لا يرتدي برداء حتى يجمعه وكل ذلك محمول على ما حمل عليه جمع علي - رضي الله عنه - بل ذكر ابن حجر وغيره أن جمع علي - رضي الله عنه - كان حسب ترتيب النزول وذكر النهاوندي - أحد مفسري الرافضة - "أن الكتاب الذي جمعه أمير المؤمنين - رضي الله عنه - كان فيه بيان شأن نزول الآيات. وأسماء الذين نزلت فيهم وأوقات نزولها وتأويل متشابهاتها وتعيين ناسخها ومنسوخها، وذكر عامها وخاصها، وبيان العلوم المرتبطة بها، وكيفية قراءتها".

وإن صح هذا - مع استحالته - فليس هو بجمع للقرآن وإنما هو كتاب في علوم القرآن. وإنما قلت مع استحالته؛ فلأن.

جمعه حسب ترتيب النزول غير ممكن فقد سأل محمد بن سيرين عكرمة مولى ابن عباس فقال: "قلت لعكرمة: ألقوه كما أنزل الأول فالأول؟ قال: لو اجتمع الإنس والجن على أن يؤلفوه هذا التأليف ما استطاعوا"

تسميته بالمصحف:

لم يكن "المصحف" يطلق على القرآن قبل جمع أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - وإنما عرف هذا الاسم بعد أن أتم زيد جمع القرآن فقد روى السيوطي عن ابن أشنة في كتابه "المصاحف" أنه قال: "لما جمعوا القرآن فكتبوه في الورق قال أبو بكر: التمسوا له اسما فقال بعضهم السفر وقال

بعضهم المصحف فإن الحبشة يسمونه المصحف وكان أبو بكر أول من جمع كتاب الله وسماه المصحف".

خبر هذا المصحف:

بعد أن أتم زيد جمع القرآن في المصحف سلمه لأبي بكر الصديق -رضي الله عنه- فحفظه عنده حتى وفاته، ثم انتقل إلى أمير المؤمنين من بعده عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- وبعد وفاته انتقل المصحف إلى حفصة أم المؤمنين -رضي الله عنها- لأن عمر رضي الله عنه جعل أمر الخلافة من بعده شورى، فبقي عند حفصة إلى أن طلبه منها عثمان -رضي الله عنه- لنسخه بعد ذلك، ثم أعاده إليها -لما سيأتي- ولما توفيت حفصة رضي الله عنها أرسل مروان بن الحكم إلى أخيها عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- ساعة رجعوا من جنازة حفصة بعزيمة ليرسلن بها فأرسلن بها ابن عمر إلى مروان فمزقها مخافة أن يكون في شيء من ذلك خلاف ما نسخ عثمان رضي الله عنه.

المحاضرة الخامسة بعنوان

تابع: جمع القرآن الكريم

سبب جمع القرآن في عهد عثمان بن عفان -رضي الله عنه-

سببه:

عندما اتسعت الفتوحات الإسلامية انتشر الصحابة -رضي الله عنهم- في البلاد المفتوحة يعلمون أهلها القرآن وأمور الدين، وكان كل صحابي يعلم بالحرف الذي تلقاه من الأحرف السبعة، فكان أهل الشام يقرءون بقراءة أبي بن كعب -رضي الله عنه- فيأتون بما لم يسمع أهل الشام فيكفر بعضهم بعضًا. وعندما اتجه جيش المسلمين لفتح "أرمينية" و"أذربيجان" كان الجنود من أهل العراق وأهل الشام فكان لشقاق والنزاع يقع بينهم ورأى حذيفة بن اليمان رضي الله عنه اختلافهم في القراءة وبعض ذلك مشوب باللحن مع إلف كل منهم لقراءته واعتياده عليها واعتقاده أنها الصواب وما عداها تحريف وضلال، حتى كفر بعضهم بعضا فأفرع هذا حذيفة -رضي الله عنه- فقال والله لأركبن إلى أمير المؤمنين "يعني عثمان بن عفان رضي الله عنه"، وكان عثمان قد رأى نحو هذا في المدينة، فقد كان المعلم يعلم بقراءة والمعلم الآخر يعلم بقراءة فجعل الصبيان يلتقون فينكر بعضهم قراءة الآخر فبلغ ذلك عثمان -رضي الله عنه- فقام خطيبًا وقال: "أنتم عندي تختلفون فيه فتلحنون فمن نأى عني من الأمصار أشد فيه اختلافًا وأشد لحنًا، اجتمعوا يا أصحاب محمد، واكتبوا للناس إمامًا" ١

"فلما جاء حذيفة إلى عثمان -رضي الله عنهما- وأخبره بما جرى تحقق عند عثمان ما توقعه، وقد روى البخاري في صحيحه قصة ذلك الجمع في حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: "إن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح "أرمينية" و"أذربيجان" مع أهل العراق فأفرع حذيفة اختلافهم في القراءة فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلني إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك فأرسلت بها حفصة إلى عثمان.

تاريخ هذا الجمع:

كان ذلك في أواخر سنة 24 وأوائل سنة 25 كما قال ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى

فكرة الجمع:

لما سمع عثمان -رضي الله عنه- ما سمع وأخبره حذيفة -رضي الله عنه- بما رأى انتشار الصحابة فيما يفعل، فقد روى ابن أبي داود بإسناد صحيح -كما يقول ابن حجر- من طريق سويد بن غفلة قال: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "يا أيها الناس لا تغلوا في عثمان ولا تقولوا له إلا خيرًا في المصاحف.. فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا جميعًا، قال ما تقولون في هذه القراءة؟ فقد بلغني أن بعضهم يقول: إن قراءتي خير من قراءتك، وهذا يكاد أن

يكون كفرًا، قلنا: فما ترى؟ قال: نرى أن نجمع الناس على مصحف واحد فلا تكون فرقة ولا يكون اختلاف. قلنا: فنعم ما رأيت.. قال علي: والله لو وليت لفعلت مثل الذي فعل.

اللجنة المختارة:

اختار عثمان -رضي الله عنه- أربعة لنسخ المصاحف هم: زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وهؤلاء الثلاثة من قريش.

فقد سأل عثمان -رضي الله عنه- الصحابة: من أكتب الناس؟ قالوا: كاتب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- زيد بن ثابت قال: فأبي الناس أعرب؟ وفي رواية أفصح. قالوا: سعيد بن العاص، قال عثمان: فليمل سعيد، وليكتب زيد" ٣. المنهج في هذا الجمع:

بعد أن اتفق عثمان مع الصحابة -رضي الله عنهم- أجمعين على جمع القرآن على حرف سلك منهجًا فريدًا، وطريقًا سليمًا، أجمعت الأمة على سلامته ودقته.

١- فبدأ عثمان رضي الله عنه بأن خطب في الناس فقال: "أيها الناس عهدكم بنبيكم منذ ثلاث عشرة وأنتم تتمتزون في القرآن وتقولون: "قراءة أبي" و"قراءة عبد الله" يقول الرجل: "والله ما تقيم قراءتك!!" فأعزم على كل رجل منكم ما كان من كتاب الله شيء لما جاء به، وكان الرجل يجيء بالورقة والأديم فيه القرآن حتى جمع من ذلك كثرة، ثم دخل عثمان فدعاهم رجلاً رجلاً فناشدتهم، لسمعت رسول الله عليه وسلم وهو أملاه عليك؟ فيقول: نعم" ١.

٢- وأرسل عثمان -رضي الله عنه- إلى أم المؤمنين حفصة بنت عمر -رضي الله عنهما- أن أرسلني إلينا بالمصحف ننسخها في المصاحف ثم نعيدها إليك، فأرسلت بها إليه، ومن المعلوم أن هذه الصحف هي التي جمعت في عهد أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- على أدق وجوه البحث والتحري.

- ثم دفع ذلك إلى زيد بن ثابت والقريشيين الثلاثة وأمرهم بنسخ مصاحف منها وقال عثمان للقريشيين: "إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم" ٢.

٤- إذا تواتر في آية أكثر من قراءة تكتب الآية خالية من أية علامة تقصر النطق بها على قراءة واحدة فتكتب برسم واحد يحتمل القراءتين أو القراءات فيها جميعًا مثل:

أ- {فَتَبَيَّنُوا} ٣ التي قرأت أيضا "فتبثوا

ب- {نُنشِرُهَا} ١ قرأت أيضا "نشرها" ٢.

أما إذا لم يكن رسمها بحيث تحتمل القراءات فيها فتكتب في بعض المصاحف برسم يدل على قراءة، وفي مصاحف أخرى برسم يدل على القراءة الأخرى مثل:

أ- {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ} ٣ هكذا تكتب في بعض المصاحف وفي بعضها "وأوصى" ٤.

ب- {وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ} ٥ بواو قبل السين في بعض المصاحف وفي بعضها بحذف الواو ٦.

وبعد الفراغ من نسخ المصاحف بعث عثمان بنسخ منها إلى الأمصار الإسلامية حيث نشط المسلمون في نسخ مصاحف منها للأفراد، وكان زيد بن ثابت في المدينة يتفرغ في رمضان من كل سنة لعرض المصاحف فيعرضون مصاحفهم عليه وبين يديه مصحف أهل المدينة ٧

٤- الإقتصار على القراءات الثابتة المعروفة عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- وإلغاء ما لم يثبت ٤.

٥- كان مرتب الآيات والسور على الوجه المعروف الآن.

قال الحاكم في المستدرک: "إن جمع القرآن لم يكن مرة واحدة، فقد جمع بعضه بحضرة الرسول -صلى الله عليه وسلم- ثم جمع بعضه بحضرة أبي بكر الصديق، الجمع الثالث هو في ترتيب السور وكان في خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عثمان رضي الله عنهم أجمعين" ١. الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان رضي الله عنهما:

كان معنى "الجمع" ظاهرًا في جمع القرآن في عهد أبي بكر فقد كان القرآن مفرقًا فأمر بجمعه كما قال المحاسبي: "كان ذلك بمنزلة أوراق وجدت في بيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيها القرآن منتشر، فجمعها جامع، وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شيء" ٢. إذاً فمعنى الجمع فيه ظاهر لا يحتاج إلى تفريق بينه وبين الجمع في عهد الرسول -صلى الله عليه وسلم- لكن الإشكال واللبس هو في الجمعين الثاني والثالث، إذ كيف يأمر عثمان بجمع القرآن وهو مجموع في عهد أبي بكر -رضي الله عنهما- ولذا فإن العلماء يولون التفريق بين جمع القرآن في عهد أبي بكر وجمعه في عهد عثمان عنايتهم لإزالة هذا اللبس، ويذكرون فروقًا.

قال القاضي أبو بكر في الانتصار: "لم يقصد عثمان قصد أبي بكر في جمع القرآن بين لوحين وإنما قصد جمعهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وإلغاء ما ليس كذلك" ٣ وقال ابن التين وغيره: "الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان أن جمع أبي بكر كان لخشية أن يذهب من القرآن شيء بذهاب حملته لأنه لم يكن مجموعًا في أي موضع واحد فجمعه في صحائف مرتبًا لآيات سوره على ما وقفهم عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- وجمع عثمان كان لما كثر الاختلاف في وجوه القراءة حتى قرءوه بلغاتهم على اتساع اللغات؛ فأدى ذلك بعضهم إلى تحطئة بعض فخشي من تفاقم الأمر في ذلك فنسخ تلك الصحف في مصحف واحد مرتبًا لسوره، واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش محتجًا بأنه نزل بلغتهم ١.

ومن هذين النصين نستطيع أن نستخلص أهم الفروق وهي:

١- أن الباعث لجمع القرآن في عهد أبي بكر -رضي الله عنه- خشية أن يذهب شيء من القرآن بذهاب حفظته، وذلك حين استحر القتل بالقراء في حروب الردة، أما جمعه في عهد عثمان -رضي الله عنه- فلكتثرة الاختلاف في وجوه القراءة.

٢- أن جمع أبي بكر -رضي الله عنه- على الأحرف السبعة، أما جمعه في عهد عثمان فقد كان على حرف واحد.

٣- أن جمع أبي بكر -رضي الله عنه- كان مرتب الآيات وفي ترتيب السور خلاف، أما جمع عثمان فقد كان مرتب الآيات والسور باتفاق.

- أن الجمع في عهد أبي بكر -رضي الله عنه- بمعنى الجمع في مصحف واحد وأما الجمع في عهد عثمان -رضي الله عنه- فبمعنى نسخه في مصاحف متعددة.

إنفاذ المصاحف:

بعد أن أتمت اللجنة نسخ المصاحف أنفذ عثمان إلى آفاق الإسلام بنسخ منها وأرسل مع كل مصحف من يوافق قراءته فأمر زيد بن ثابت أن يقرئ بالمدني وبعث عبد الله بن السائب مع المكي والمغيرة بن أبي شهاب مع الشامي وأبا عبد الرحمن السلمي مع الكوفي وعامر بن عبد القيس مع البصري وتلقى التابعون في كل قطر قراءة إمامهم وتفرغ قوم منهم لضبط القراءات حتى صاروا أئمة يرحل إليهم.

موقف الصحابة من هذا الجمع:

وبعد أن أنفذ عثمان المصاحف أمر بما سوى مصحفه أن يحرق وبعث "إلى أهل الأمصار إني قد صنعت كذا وكذا ومحوت ما عندي فامحوا ما عندكم".

وقد رضي الصحابة -رضي الله عنهم- ما صنع عثمان وأجمعوا على سلامته وصحته وقال زيد بن ثابت "فرايت أصحاب محمد يقولون: أحسن والله عثمان، أحسن والله عثمان".

وروى ابن أبي داود عن مصعب بن سعد قال: "أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان المصاحف فأعجبهم ذلك وقال: لم ينكر ذلك منهم أحد".

وروى سويد بن غفلة قال: قال علي -رضي الله عنه: لا تقولوا في عثمان إلا خيرًا فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا" وعند ابن أبي داود قال: قال علي في المصاحف "لو لم يصنعه عثمان لصنعتة".

ولم ينقل عن أحد من الصحابة خلاف أو معارضة لما فعل عثمان -رضي الله عنه- إلا ما روي من معارضة عبد الله بن مسعود وينبغي أن نعلم أن معارضته -رضي الله عنه- لم تكن بسبب حصول تقصير في الجمع أو نقص أو زيادة، وإنما جاءت معارضته لعدم تعيينه مع أعضاء لجنة النسخ للمصاحف، ولهذا قال "أعزل عن نسخ المصاحف وتولاها رجل والله لقد أسلمت وإنه لفي صلب رجل كافر" ١.

وروى الترمذي عن ابن شهاب قال: "فبلغني أن ذلك كرهه من مقالة ابن مسعود رجال من أفاضل أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم" ٢ وقد دافع أبو بكر الأنباري عن اختيار زيد بقوله: "ولم يكن الاختيار لزيد.. إلا أن زيدًا كان أحفظ للقرآن من عبد الله إذا وعاه كله ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- حي، ولا ينبغي أن يظن جاهل أن في هذا طعنًا على عبد الله بن مسعود؛ لأن زيدًا إذا كان أحفظ للقرآن منه فليس ذلك موجبًا لتقدمه عليه؛ لأن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما كان زيد أحفظ منهما للقرآن وليس هو خيرًا منهما ولا مساويًا لهما في الفضائل، والمناقب، وما بدا عن عبد الله بن مسعود من نكير فشيء نتجه الغضب، ولا يعمل به ولا يؤخذ به، ولا يشك في أنه رضي الله عنه قد عرف بعد زوال الغضب عنه حسن اختيار عثمان ومن معه من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وبقي على موافقتهم وترك الخلاف لهم" ٣ وأكد ذلك الذهبي فقال: "وقد ورد أن ابن مسعود رضي وتابع عثمان والله الحمد" ٤ وقال ابن كثير: "وإنما روي عن عبد الله بن مسعود شيء من الغضب؛ بسبب أنه لم يكن ممن كتب المصاحف إلى أن قال.. ثم رجع ابن مسعود إلى الوفاق" ٥.

فإن قيل كيف جاز للصحابة ترك الأحرف الستة التي أمر الرسول -صلى الله عليه وسلم- قراءة القرآن بها واقتصروا على حرف واحد؟ قيل: إن أمره إياهم بذلك لم يكن أمر إيجاب وفرض، وإنما كان أمر إباحة ورخصة.. وإذا كان ذلك لم يكن القوم بتركهم بقية الأحرف

.. وإذا كان ذلك لم يكن القوم بتركهم بقية الأحرف

لتوكين ما عليهم نقله، بل كان الواجب عليهم من الفعل ما يؤدي به الواجب وهو أحد هذه الأحرف، فإذا حفظوه ونقلوه فقد فعلوا ما كلفوا به ١.

وقد علل ابن القيم -رحمه الله تعالى- جمع الناس على حرف واحد، فأحسن حيث قال: "فلما خاف الصحابة رضي الله عنهم على الأمة أن يختلفوا في القرآن ورأوا أن جمعهم على حرف واحد أسلم وأبعد من وقوع الاختلاف فعلوا ذلك ومنعوا الناس من القراءة بغيره، وهذا كما لو كان للناس عدة طرق إلى البيت، وكان سلوكهم في تلك الطرق يوقعهم في التفرق والتشتيت ويطمع فيهم العدو، فرأى الإمام جمعهم على طريق واحد، فترك بقية الطرق جاز ذلك، ولم يكن فيه إبطال لكون تلك الطرق موصلة إلى المقصود وإن كان فيه نهي عن سلوكه لمصلحة الأمة" ٢.

عدد المصاحف التي أمر عثمان رضي الله عنه بنسخها:

اختلف في عدد النسخ التي كتبها عثمان إلى خمسة أقوال:

١- قيل إنها أربع نسخ:

قال أبو عمرو الداني: "أكثر العلماء على أن عثمان بن عفان -رضي الله عنه- لما كتب المصحف جعله على أربع نسخ، وبعث إلى كل ناحية من النواحي بواحدة منهن، فوجهه إلى الكوفة إحداهن وإلى البصرة أخرى وإلى الشام الثالثة، وأمسك عند نفسه واحدة ٣.

٢- قيل إنها خمس نسخ:

قال السيوطي: "المشهور أنها خمسة" ٤.

- قيل: إنها سبع نسخ:

فقد روى ابن أبي داود عن أبي حاتم السجستاني قال: لما كتب عثمان المصاحف حين جمع القرآن كتب سبعة مصاحف فبعث واحدا إلى مكة وآخر إلى الشام وآخر إلى اليمن، وآخر إلى البحرين، وآخر إلى البصرة، وآخر إلى الكوفة، وحبس بالمدينة واحدا ١.

وقيل: إنها ثمانية وقيل إنها ستة.

خبر هذه المصاحف:

ذكر بعض المؤرخين القدامى رؤيتهم لبعض هذه المصاحف ومن ذكر رؤيته لبعضها ابن جبير "ت ٦١٤هـ" حين زار جامع دمشق رأى في الركن الشرقي من المقصورة الحديثة في المحراب خزانة كبيرة فيها مصحف من مصاحف عثمان -رضي الله عنه- وهو المصحف الذي وجه به إلى الشام كما قال ٢ وقد زار المسجد أيضا ابن بطوطة "ت ٧٧٩هـ" فقال: "وفي قبلة المسجد

المقصورة العظمى التي يؤم فيها إمام الشافعية وفي الركن الشرقي منها إزاء المحراب خزانة كبيرة فيها

المصحف الكريم الذي وجه أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى الشام ٣ ورأى

النسخة نفسها ابن كثير "٧٧٤هـ" رحمه الله تعالى حيث قال: "وأما المصاحف العثمانية الأئمة

فأشهرها اليوم الذي في الشام بجامع دمشق عند الركن شرقي المقصورة المعمورة بذكر الله، وقد

كان قديماً في طبرية، ثم نقل منها إلى دمشق في حدود ثماني عشرة وخمس مائة، وقد رأيت كتاباً

جليلاً عظيماً ضخماً بخط حسن مبين قوي بجر محكم في رق أظنه من جلود الإبل والله أعلم ٤

كما ذكر ابن بطوطة أنه رأى في مسجد علي رضي الله عنه في البصرة المصحف الذي كان عثمان - رضي الله عنه - يقرأ فيه لما قتل، وأثر تغيير الدم في الورقة التي فيها قوله تعالى: {فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} ١، ٢ ويبدو كذلك أن ابن الجزري وابن فضل الله العمري قد رأيا كلاهما هذا المصحف الشامي نفسه ٣. ورأى ابن الجزري مصحفًا في مصر ٤. ويبدو - كذلك - أن المصحف الشامي ظل محفوظًا في الجامع الأموي إلى أوائل القرن الرابع عشر الهجري حيث قيل: إنه احترق، فقد قال الأستاذ محمد كرد علي في حديثه عن الجامع الأموي: حتى إذا كانت سنة ١٣١٠ هـ. سرت النار إلى جذوع سقوفه فالتهمت بها في أقل من ثلاث ساعات فدثر آخر ما بقي من آثاره، ورياشه وحرق فيه مصحف كبير بالخط الكوفي كان جيء به من مسجد عتيق في بصرى، وكان الناس يقولون: إنه المصحف العثماني ٥ وقيل: إن هذا المصحف أمسى زمنًا في حوزة قياصرة الروس في دار الكتب في لينينجراد ثم نقل إلى إنجلترا ٦. كما أن هناك مصاحف أثرية تحتويها خزائن الكتب والآثار في مصر، ومنها المصحف المحفوظ في خزائن الآثار بالمسجد الحسيني، ويقال عنها إنها مصاحف عثمانية، وقد شكك كثيرًا الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني بهذا، معللاً بأن فيها زركشة ونقوشًا موضوعة كعلامات للفصل بين السور وليبيان أعشار القرآن، ومعلوم أن المصاحف العثمانية كانت خالية من كل هذا ٧. وفقد هذه المصاحف لا يقلل من ثقتنا اليقينية بما تواتر واستفاض نقله من المصاحف ثقة عن ثقة وإمامًا عن إمام، وسواء وجدت هذه المصاحف أو فقدت، فإننا على يقين تام لا يزاوله شك ولا يعتريه ريب بسلامة هذه المصاحف من الزيادة أو النقصان

وقد اعترف بذلك غير المسلمين من العلماء المحققين يقول المستشرق موير: "إن المصحف الذي جمعه عثمان قد تواتر انتقاله من يد ليد حتى وصل إلينا بدون أي تحريف، ولقد حفظ بعناية شديدة بحيث لم يطرأ عليه أي تغيير يذكر، بل نستطيع أن نقول: إنه لم يطرأ عليه أي تغيير على الإطلاق في النسخ التي لا حصر لها، والمتداولة في البلاد الإسلامية الواسعة، فلم يجد إلا قرآن واحد لجميع الفرق الإسلامية

النوع الثالث: جمعه بمعنى تسجيله صوتيًا:

من المعلوم أن للتلاوة أحكامًا ينبغي أن يأخذ بها تالي القرآن الكريم كالقلقلة والرّوم والإشمام، والإخفاء، والإدغام، والإقلاب، والإظهار، ونحو ذلك. وليس من السهل بل قد تتعذر كتابة مثل هذا.

ولهذا قرر العلماء - رحمهم الله تعالى - أنه لا يصح التعويل على المصاحف وحدها، بل لا بد من التلقي عن حافظ متقن، وكانوا يقولون: "من أعظم البلية تشيخ الصحيفة" ١. ويقولون: "لا تأخذوا القرآن من مصحفي ولا العلم من صحفي" ٢. وهو الذي يعلم الناس وينظر إلى رسم المصحف. وكان الشافعي - رحمه الله تعالى - يقول: "من تفقه من بطون الكتب ضيع الأحكام" ١. بل إن أعلام حفاظ القرآن يميزون الحفظ بالتلقي، فهذا ابن مسعود - رضي الله عنه - يقول: "والله لقد أخذت من في رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بضعة وسبعين سورة" ٢ ويبين عن أخذ باقيه فيقول في رواية أخرى: "وأخذت بقية القرآن عن أصحابه" ٣ ولإدراكه - رضي الله عنه - مكانة التلقي بالمشافهة كان إذا سئل عن سورة لم يكن تلقاها عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صرح لهم بذلك، ودلهم على من تلقاها بالمشافهة عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - فعن معد يكرب قال: أتينا عبد الله فسألناه أن يقرأ "طسم" المائتين، فقال: ما هي معي، ولكن عليكم من أخذها من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خباب بن الأرت، قال: فأتينا خباب بن الأرت، فقرأها علينا .

وما قاله ابن مسعود وغيره من أعلام الحفاظ في وجوب التلقي للقرآن مشافهة لم يبتدعوه من عند أنفسهم، وإنما أخذوه من سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - نفسه يتعلم القرآن من جبريل عليه السلام ويشافهه به مشافهة، ويعارضه القرآن في كل عام في شهر رمضان، وعارضه عام وفاته بالقرآن مرتين، والصلوات الخمس يجهر في ثلاث منها، وكذا في صلاة الجمعة، والاستسقاء، والخسوف، والكسوف، والتراويح، والعيدين، وفي هذا إشارة إلى تعلم الناس للتلاوة الصحيحة في الصلاة الجهرية ثم تطبيقها في الصلاة السرية. وكان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يبعث القراء إلى من يدخل في الإسلام لتعليمهم التلاوة وكان بإمكانه - صلى الله عليه وسلم - أن يكتب لهم، واقتدى بسنته من بعده الخلفاء الراشدون فأرسلوا إلى أهل البلدان المفتوحة قراء يعلمونهم القرآن، ولما نسخ عثمان المصاحف أرسل مع كل مصحف قارئاً يعلم الناس عليه. ولا شك أن هذا دليل قاطع على أن من أحكام القراءة ما لا يمكن إتقانه إلا بالتلقي الشفهي. ولم يكن من وسيلة لتحقيق ذلك إلا عن طريق القراء وقد حدث في العصر الحديث وسائل وآلات تسجل الصوت، ثم تعيده. ولا شك أن هذه الآلات والاستفادة منها في نشر القرآن الكريم وبثه في العالم الإسلامي خاصة في البلدان التي تفتقد المعلم الضابط من خير الوسائل لحفظه وتعليمه. وقد أدرك هذا الأمر بعض الغيورين على الإسلام والحريصين على نشره فتداعوا لجمع القرآن في أشرطة صوتية كما جمع على الورق في المصحف.

وتبنت الجمع الجمعية العامة للمحافظة على القرآن الكريم بمصر وكان ذلك سنة ١٣٧٩ هـ باقتراح من رئيسها الأستاذ لبيب السعيد، وقد اتفقوا على تسمية المشروع بـ "المصحف المرتل" أو

تعريف المصحف المرتل:

أما المصحف: فمثلثة الميم، والأصل والأشهر الضم، وهو مأخوذ من "أصحف" أي جعلت فيه الصحف ١.

وإصطلاحاً: هو مجموعة صحائف القرآن مرتبة الآيات والسور على الوجه الذي تلقته الأمة الإسلامية من النبي صلى الله عليه وسلم.

والفرق بين المصحف والقرآن أن المصحف اسم لمجموع الصحائف المدون فيها القرآن، أما القرآن الكريم فهو الألفاظ ذاتها.

وأما المرتل لغة: فمأخوذ من رتل الثغر، إذا استوى نباته، وحسن تنزيده، وكان مُفْلِجاً.

وإصطلاحاً: القراءة بتؤدة واطمئنان وإخراج كل حرف من مخرجه مع إعطائه حقه ومستحقه ومع تدبر المعاني، وقيل هو رعاية مخارج الحروف، وحفظ الوقوف.

والترتيل أفضل مراتب القراءة الأربع وهي:

١- التحقيق: وهو أكثرها اطمئناناً وأكثر ما يستعمل في التعليم.

٢- الترتيل: القراءة بتؤدة واطمئنان.

٣- التدوير: وهي مرتبة بين الترتيل والحدرد.

٤- الحدرد: وهو الإسراع بالقراءة مع مراعاة الأحكام.

المراد به:

المصحف المرتل هو التسجيل المسموع للقرآن الكريم.

أدواته:

أجهزة التسجيل الحديثة وأشرطته وأسطواناته ونحوها.

سببه:

أما بواعث التفكير في الجمع الصوتي للقرآن الكريم فكثيرة منها:

١- اقتضاء المحافظة على القرآن الكريم وذلك عن طريق:

- أ- تعليم النطق الصحيح الذي لا يحيص عنه لطالب القرآن والذي بغيره لا يؤمن التصحيح.
- ب- المحافظة على القراءات التي نزل بها القرآن وأجمع عليها المسلمون وثبت تواترها.
- ج- المنع من القراءة بالشواذ التي تعلق بها أفراد من القراء.
- ٢- تيسير تحفيظ القرآن الكريم وتعليمه.
- أ- لأن المصاحف المرتلة نماذج صوتية ممتازة للترتيل الصحيح.
- ب- لأنها تيسر القرآن للحفظ والتعليم خاصة في البلدان التي تفتقد المعلم الضابط.
- ج- لأنها طُبِّحَتْ اختلاف الرسم العثماني عن الرسم الإملائي المعروف.
- ضرورة الذود عن القرآن الكريم ضد الطاعنين عليه وضد كل محاولة لتحريفه، وكل عقبة توضع أمام وحدة أتباعه أو أمام نشره وتوزيعه بين المسلمين وذلك بأن ييث في الإذاعات ونحوها.
- ٤- معاضدة المصحف العثماني الذي أجمع المسلمون عليه.
- ٥- درء أي تحريف عن القرآن الكريم.
- ٦- نشر لغة القرآن الكريم وتوطيد الوحدة بين المسلمين.

اريخ المصحف المرتل:

عقد أول اجتماع في الجمعية العامة للمحافظة على القرآن الكريم برئاسة الأستاذ لبيب السعيد لدراسة الموضوع في مساء ١٤ / رمضان / ١٣٧٨ هـ في القاهرة وتمت الموافقة عليه ووضعت الشروط والمواصفات.

بدء الطبع:

لاقى المشروع في بدايته عقبات كثيرة مادية وعلمية وغيرها، وقد تجاوز بحمد الله كل هذا، وبدأ الطبع لأول مرة سنة 1379 هـ في ذي القعدة، وكانت الطبعة الأولى في المحرم من عام 1381 هـ، وذلك بقراءة الشيخ محمود خليل الحصري برواية حفص عن عاصم، فأعقب هذا سنة 1382 هـ تسجيل قراءة أبي عمرو برواية الدوري.

كيفية التسجيل:

لم يكن التسجيل شيئاً هيناً فمع امتياز القارئ وكونه قد أصبح آنئذ شيخ المقارئ المصرية، فقد كانت اللجنة تستوقفه كثيراً ليعيد التسجيل على النحو النموذجي المطلوب.

القراء وهم:

1. محمود خليل الحصري ويقراً برواية حفص عن عاصم.
2. مصطفى المألواني ويقراً برواية خلف عن حمزة.
3. عبد الفتاح القاضي ويقراً برواية ابن وردان عن أبي جعفر.
4. فؤاد العروسي، ومحمد صديق المنشاوي، وكامل يوسف البهيمي برواية الدوري عن أبي عمرو. ولم يتم تسجيل شيء لغير الحصري.

مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف:

وقد أدركت حكمة المملكة العربية السعودية -وفقها الله تعالى إلى كل خير- الحاجة الماسة للعناية بطباعة المصحف وتسجيله، فأنشأت "مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف" وتم افتتاحه في السادس من شهر صفر عام 1405 ومن أهداف هذا المجمع:

1. طباعة المصحف الشريف:

طباعة تنأى به عن الأخطاء المطبعية، حيث أنشأت مطبعة تعد من أضخم المطابع في العالم وأحدثها. ويسمى المصحف الذي تصدره "مصحف المدينة النبوية" وتبلغ طاقة المطبعة ثلاثين مليون نسخة سنوياً أي بمعدل مصحف كامل كل "ثانية" بدون توقف.

2. ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغات المختلفة:

وقد أصدر المجمع حتى نهاية رجب عام 1423 هـ أربعين ترجمة لمعاني القرآن الكريم

- تسجيل القرآن الكريم:

يضم المجمع أستديو للتسجيلات الصوتية، مجهزاً بأحدث الآلات والمعدات ذات التقنية العالية، حيث يتم تسجيل تلاوة القرآن الكريم بأصوات كبار القراء بالمملكة والعالم الإسلامي تحت إشراف لجنة من كبار العلماء تراقب أعمال التسجيل. ويسعى المجمع في خطته المستقبلية إلى إنتاج إصدارات صوتية لترجمة معاني القرآن الكريم باللغات المختلفة.

وتبلغ الطاقة الإنتاجية من أشرطة الكاسيت في المجمع أكثر من مليونين وأربع مائة ألف شريط سنوياً.

وحتى نهاية رجب عام 1423 هـ تم تسجيل القرآن الكريم كاملاً برواية حفص عن عاصم بأصوات كل من:

- 1- الشيخ علي بن عبد الرحمن الحذيفي إمام المسجد النبوي الشريف.
- 2- الشيخ محمد أيوب محمد يوسف.
- 3- الشيخ عبد الله بن علي بصفر.
- 4- الشيخ إبراهيم الأخضر علي القيم.
- 5- الدكتور عماد بن زهير حافظ.

كما تم تسجيل القرآن الكريم كاملاً بصوت الشيخ علي الحذيفي برواية قالون عن نافع. وتم تسجيل معاني القرآن الكريم مترجمة إلى اللغة الأورمية وهناك خطة لتسجيل معاني القرآن الكريم بلغات أخرى.

4- الوفاء باحتياجات الحرمين الشريفين والمساجد والعالم الإسلامي من الإصدارات الخاصة بالقرآن الكريم.

5- خدمة السنة والسيرة النبوية الشريفة.

وذلك بجمع وحفظ الكتب والمخطوطات والوثائق والمعلومات المتعلقة بالسنة والسيرة وإعداد موسوعة في الحديث النبوي إلى جانب ترجمة بعض أمهات كتب السنة والسيرة.

6- إجراء البحوث والدراسات المتعلقة بالقرآن والسنة

المحاضرة السادسة بعنوان

ترتيب سور القرآن وآياته

أولا ترتيب السور

وهذا مبحث مهم من المباحث الجليلة، أولاه العلماء اهتمامهم وعنايتهم وزادت قيمته ومكانته حين ظهر الاتجاه الحديث في الدراسات القرآنية بتناول السور القرآنية مستقلة بناء على الوحدة الموضوعية، وأن كل سورة ذات هدف معين وغرض أساس أنزلت لأجله، وأكدوا على هذا المعنى باعتباره مدخلاً لفهم معانيها وكشف أسرارها وحكمها، ثم بنوا على ذلك الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم وبيان المناسبات بين الآيات والسور.

وتقسيم القرآن إلى سور وآيات من خصائصه التي لا يشاركه فيها كتاب آخر قال الجاحظ: "سمى الله كتاباً اسمه مخالفاً لما سمي العرب كلامهم على الجمل والتفصيل سمي جملة قرآنًا كما سموا ديوانًا، وبعضه سورة كقصيدة، وبعضها آية كالبيت وآخرها فاصلة كقافية"

أولاً- سور القرآن الكريم:

السور: جمع سورة، وفي نطق "السورة" لغتان:

1. أولاهما:

"السورة" بالهمزة مشتقة من "أسار" أي أبقى "والسور" البقية التي تبقى من شرب الشارب في الإناء، وسميت سورة كأن السورة بقية جملة القرآن وقطعة منه.

2. ثانيهما :

"السورة" بدون همز ومعناها في اللغة: المنزلة والشرف وما طال من البناء وحسن، والعلامة، وسميت السورة سورة لارتفاعها وشرفها وكونها علامة على صدق من جاء بها، ودليلاً على أن هذا القرآن من عند الله، وهي تشبه السور من وجهين:

- الأول: أن السور له علو حسي والسورة لها علو معنوي.
- الثاني: أن السور يقوم بناؤه على لبنات بعضها فوق بعض والسورة يقوم بناؤها على آيات يتبع بعضها بعضاً.

أما في الاصطلاح: فهي "طائفة مستقلة من آيات القرآن ذات مطلع ومقطع

طريق معرفة السورة: معرفة سور القرآن الكريم من حيث بداية كل سورة ونهايتها توقيفي لا مجال للاجتهاد فيه.

عدد سور القرآن:

قال الزركشي رحمه الله تعالى: "اعلم أن عدد سور القرآن العظيم باتفاق أهل الحل والعقد مائة وأربع عشرة سورة كما هي في المصحف العثماني، أولها الفاتحة وآخرها الناس، وقال مجاهد: وثلاث عشرة بجعل الأنفال والتوبة سورة واحدة لاشتباه الطرفين وعدم البسمة، ويرده تسمية النبي -ﷺ- كلا منهما"1.

أسماء السور:

تنقسم سور القرآن من حيث تعدد الاسم وعدمه إلى ثلاثة أقسام:

- الأول: ما له اسم واحد وهو أكثر سور القرآن مثل: النساء، والأعراف، الأنعام، مريم، وغيرها.
 - الثاني: ما له أكثر من اسم، ويشمل هذا النوع سورا لها اسمان كسورة "محمد" ﷺ حيث تسمى "القتال" وسورة "الجاثية" تسمى "الشريعة" وسورة "النحل" تسمى "النعم" لما عدد الله فيها من النعم على عباده.
- ويشمل سورا لها ثلاثة أسماء مثل "المائدة" وتسمى "العقود" و"المنفذة" ومثل سورة غافر وتسمى "الطَّوْل" و"المؤمن".
- ويشمل سورا لها أكثر من ثلاثة أسماء مثل سورة التوبة ومن أسمائها "براءة" و"الفاضحة" و"الحافرة" وقال حذيفة: هي سورة "العذاب" وقال ابن عمر: كنا ندعوها "المشقة" وقال الحارث بن يزيد: كانت تدعى "المبعثرة" ويقال لها: "المسورة" ويقال لها: "البَحوث".
- وكسورة الفاتحة فقد ذكر السيوطي لها خمسة وعشرين اسما منها "أم الكتاب" "أم القرآن" و"السبع المثاني" و"الصلاة" و"الحمد" و"الوافية" و"الكنز" و"الشافية" و"الشفاء" و"الكافية" و"الأساس".
- الثالث: أن تسمى عدة سور باسم واحد:

ومن ذلك تسمية البقرة وآل عمران بـ "الزهرابين" وتسمية سورتي الفلق والناس بـ "المعوذتين" وتسمية السور المبدوءة بـ "حم" بـ "الحوامي"

مصدر التسمية:

وفي سورة الفاتحة خلاف فقيل من أوله وقيل من المفصل ٢.

ترتيب السور:

للعلماء في ترتيب السور في القرآن الكريم ثلاثة أقوال:

الأول: أن ترتيب السور على ما هو عليه في المصحف الآن توقيفي وأنه لم توضع سورة في مكانها إلا بأمر من الرسول -صلى الله عليه وسلم- عن جبريل عليه السلام عن ربه عز شأنه كترتيب الآيات سواء بسواء.

قال أبو بكر الأنباري: "اتساق السور كاتساق الآيات والحروف كله عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن" ١.

وقال الكرماني في البرهان: "ترتيب السور هكذا هو عند الله في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب" ٢. وقال الطيبي: "أنزل القرآن أولا جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ثم نزل مفرقا على

حسب المصالح، ثم أثبت في المصاحف على التأليف والنظم المثبت في اللوح المحفوظ" ١.

وقال أبو جعفر النحاس: "إن تأليف السور على هذا الترتيب من رسول الله صلى الله عليه وسلم" ٢.

وقال ابن الحصّار: "ترتيب السور ووضع الآيات موضعها إنما كان بالوحي" ٣. وغير هؤلاء من العلماء ومن أدلتهم:

١- إجماع الصحابة -رضي الله عنهم- على ترتيب السور في مصحف عثمان رضي الله عنه ولو كان ترتيبه بالاجتهاد لتمسك أصحاب المصاحف المخالفة في الترتيب بمصاحفهم.

٢- قال ابن حجر العسقلاني -رحمه الله تعالى: "ومما يدل على أن ترتيب المصحف كان توقيفياً ما أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما عن أوس بن أبي أوس حذيفة الثقفي قال: كنت في الوفد الذين أسلموا من ثقيف.. وفيه.. فسألنا أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قلنا: كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: نحزبه ثلاث سور، وخمس سور، وسبع سور، وتسع سور، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل من "ق" حتى نختم". ثم قال ابن حجر: "فهذا يدل على أن ترتيب السور على ما هو في المصحف الآن كان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم" ٤.

وإذا جمعت أعداد السور المذكورة هكذا $3+5+7+9+11+13$ كان المجموع 48 سورة قال الزركشي: "وحينئذ فإذا عددت ثمانين وأربعين سورة كانت التي بعدهن سورة "ق". وهذا يدل على أن السور كانت مرتبة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم.

3- قال السيوطي رحمه الله تعالى: "ومما يدل على أنه توقيفي كون الحواميم رتبت ولاءً "يعني متواليه" وكذا الطواسين، ولم ترتب المسبحات ولاء، بل فصل بين سورها وفصل بين "طسم" الشعراء و"طسم" القصص بـ "طس" مع أنها أقصر منهما، ولو كان الترتيب اجتهاداً لذكرت المسبحات ولاء، وأخرت "طس" عن القصص".

القول الثاني: أن ترتيب السور اجتهاد من فعل الصحابة رضي الله عنهم.

وهذا قول جمهور العلماء، قال ابن فارس: جمع القرآن على ضربين: تأليف السور كتقديم السبع الطوال وتعقيبها بالمئين فهذا هو الذي تولته الصحابة وأما الجمع الآخر وهو جمع الآيات في السور فهو توقيفي تولاه النبي -ﷺ- كما أخبر به جبريل عن أمر ربه. ومما استدلوا به على ذلك.

1- اختلاف ترتيب السور في مصاحف الصحابة قبل أن يجمع القرآن، فلو كان توقيفياً لاتفقت مصاحفهم كما اتفقت في ترتيب الآيات، فقد كان مصحف علي مرتباً على النزول وأول مصحف ابن مسعود البقرة، ثم النساء، ثم آل عمران، ومصحف أبي الفاتحة، ثم البقرة، ثم النساء، ثم آل عمران.

2- ما رواه مسلم في صحيحه عن حذيفة رضي الله عنه أن النبي -ﷺ- صلى بالبقرة، ثم النساء ثم بآل عمران في ركعة. قال عياض: هو دليل لكون ترتيب السور وقع باجتهاد الصحابة حين كتبوا المصحف.

القول الثالث: أن ترتيب بعض السور كان توقيفياً وبعضها كان باجتهاد الصحابة:

قال الزركشي: مال ابن عطية إلى أن كثيراً من السور كان قد علم ترتيبها في حياته -ﷺ- كالسبع الطوال والحواميم والمفصل وأن ما سوى ذلك يمكن أن يكون قد فوض الأمر فيه إلى الأمة بعده، وقال أبو جعفر بن الزبير الآثار تشهد بأكثر مما نص عليه ابن عطية ويبقى منها قليل يمكن أن يجري فيه الخلاف.

مناقشة الأدلة:

- ١- استدل القائلون بالتوقيف في ترتيب السور بإجماع الصحابة على ترتيب عثمان -رضي الله عنه- وهذا لا يدل على ما ذهبوا إليه، لأن إجماعهم على ترتيب عثمان لا يشترط له أن يستند إلى التوقيف عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- فقد وافقوا عثمان على هذا الترتيب توحيداً لكلمة الأمة وقطعا لأسباب الاختلاف كما وافقوا على الاقتصار على حرف واحد.
- وأما استدلال السيوطي فإن ما أورده لا يلزم منه أن ترتيب السور توقيفي فعدم ترتيب المسبحات ولاء قد يكون لمراعاة مناسبات أخرى أهم من مناسبة فواتح السور، ولهذا مال السيوطي نفسه إلى رأي آخر.
- ٢- وأما القائلون بأن الترتيب كان كله بطريق الاجتهاد، فإن من أدلتهم اختلاف ترتيب السور في مصاحف الصحابة ولا يصلح هذا دليلاً على ما ذهبوا إليه فقد يكون ترتيب الصحابة قبل أن يعلموا بالتوقيف فلما بلغهم ذلك رجعوا عن ترتيب مصاحفهم.
- وأما استدلالهم بأن الرسول -صلى الله عليه وسلم- قد صلى بالبقرة والنساء وآل عمران في ركعة فلا يدل على ما ذهبوا إليه كما قال السيوطي، وعلل ذلك بقوله: "لأن ترتيب السور في القراءة ليس بواجب ولعله فعل ذلك لبيان الجواز" ١.
- وأما الرأي الثالث فإنه يستند إلى أدلة الرأي الأول وهو أن ترتيب السور توقيفي أما القسم الاجتهادي فإن أدلته ضعيفة لا تستند إلى دليل قوي.
- الرأي الراجح:
- إن استعراض الأدلة يوقفنا على ثبوت التوقيف في ترتيب أكثر سور القرآن الكريم وما لم يرد دليل على ترتيبه لا يعني أنه رتب بطريق الاجتهاد، فقد يكون ترتيبه بدليل لم يصل إلينا.
- وعلى هذا فإن الرأي الراجح أن ترتيب سور القرآن الكريم كترتيب آياته بالتوقيف عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- عن جبريل عليه السلام عن ربه سبحانه وتعالى مع ما في أدلة هذا الرأي من الاحتمال كما ذكر إلا أنه أقوى الآراء.
- الموقف من هذا الترتيب:
- وعلى كل حال ومهما يكن من أمر سواء أكان هذا الترتيب الذي نجده في المصاحف بطريق التوقيف أم بطريق الاجتهاد، ثم أجمع الصحابة عليه، ومضت الأمة على قبوله، فيجب التمسك به والإعراض عن الدعوات الزائفة لإعادة ترتيب المصاحف حسب النزول أو الموضوع أو غير ذلك؛ لأن في ترتيب سوره معاني لا تقل عن معاني الترتيب في آياته، جد كثير من العلماء في استنباطها وتحصيلها. فضلاً عن مخالفة الإجماع وما في ذلك من مفسد عظيمة.
- أما ترتيب السور في التلاوة فليس بواجب وإنما هو مندوب إلا في تعليم الصبيان، فالأولى أن يبدأ بهم من آخر المصحف إلى أوله، والله أعلم.

حكمة تسوير القرآن:

لتقسيم القرآن الكريم إلى سور حكم عديدة منها:

- ١- التيسير والتشويق لمدارسة القرآن الكريم وحفظه إذ لو كان سبيكة واحدة لشق حفظه وصعبت مدارسته.
- ٢- الدلالة على موضوع السورة وأهدافها إذ إن لكل سورة موضوعا خاصا، وأهدافا معينة، فسورة يوسف تترجم لقصته، وسورة التوبة تتحدث عن المنافقين وتكشف أسرارهم.. وهكذا.
- ٣- التنبيه إلى أن الطول ليس شرطا من شروط الإعجاز والتحدي، فسورة الكوثر ثلاث آيات وهي معجزة إعجاز سورة البقرة.
- ٤- التدرج في تعليم الأطفال من السور القصار إلى السور الطوال تيسيرا من الله لعباده لحفظ كتابه.
- ٥- أن الكتاب إذا انطوت تحته أنواع وأصناف وأبواب وفصول كان أحسن وأفحهم من أن يكون بابا واحدا.
- ٦- أن القارئ إذا ختم سورة أو جزءا كان أنشط له وأبعث على التحصيل والاستمرار في التلاوة منه لو استمر على الكتاب بطوله، كالمسافر إذا قطع ميلا نَقَسَ ذلك عنه وتجدد نشاطه ولذا جزئ القرآن أجزاءً وأجزاءً وأرباعاً وأخماساً وأعشاراً.
- ٧- أن الحافظ إذا حذق سورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها فيعظم عنده ما حفظه ويجرص على معاهدته وتكرار تلاوته، ومنه حديث أنس رضي الله عنه: "كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا" ١.
- ٨- أن التفصيل سبب تلاحق الأشكال والنظائر وملاءمة بعضها لبعض وبذلك تتلاحظ المعاني ويتجاوب النظم ٢.

ثانياً: آيات القرآن الكريم:

تعريف الآية:

الآية في اللغة تطلق على عدة معانٍ منها:

1. المعجزة: ومنه قوله تعالى: {سَلِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ}
2. العلامة: ومنه قوله تعالى: {إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ}
3. العبرة: ومنه قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}
4. البرهان والدليل: ومنه قوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ}
5. الأمر العجب، تقول العرب: "فلان آية في العلم وفي الجمال".
6. الجماعة، تقول العرب: "خرج القوم بآيتهم" أي بجماعتهم.

والآية في الاصطلاح:

طائفة ذات مطلع ومقطع مندرجة في سورة من القرآن.

المناسبة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي:

لأن الآية القرآنية معجزة ولو باعتبار انضمام غيرها إلينا وهي علامة على صدق من جاء بها وفيها عبرة وعظة لمن أراد أن يعتبر وهي دليل وبرهان، على أن هذا القرآن من الله تعالى، وهي من الأمور العجيبة لسموها وبلاغتها وإعجازها وهي جماعة من الحروف، فمعانيها في اللغة موجودة في معناها الاصطلاحي.

إطلاق الآية:

تطلق الآية ويراد بها:

1. الآية ومثاله قول ابن مسعود رضي الله عنه: أعظم آية في القرآن: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}.
2. وقد يطلق لفظ الآية على ما هو أكثر منها كقول ابن مسعود رضي الله عنه أخوف آية في القرآن: {مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} فإنهما آيتان باتفاق.

عدد آيات القرآن الكريم:

أجمع العلماء على أن عدد آيات القرآن ستة آلاف آية ومائتا آية ثم اختلفوا في الزيادة:

- فمنهم من لم يزد على ذلك.
- ومنهم من قال: ومائتا آية وأربع آيات.
- ومنهم من قال: وأربع عشرة آية.
- ومنهم من قال: وسبع عشرة آية.
- ومنهم من قال: وتسع عشرة آية.
- ومنهم من قال: وعشرون آية.
- ومنهم من قال: وست وثلاثون آية.

وغير ذلك.

سبب الاختلاف وأثره:

سببه أن النبي -ﷺ- كان يقف على رءوس الآي للتوقيف ليعلم أصحابه أنها رأس آية، حتى إذا علموا ذلك صار يصل الآية بما بعدها لتمام المعنى فيحسب من لم يسمعه أولاً أنها فاصلة فيعد الآيتين آية واحدة، ولذا يختلف العدد.

وليس لهذا أثر يذكر ما دام القرآن الكريم سالمًا من الزيادة أو النقصان فالقطعة من القماش إذا قاسها إنسان بذراعه الطويلة، ثم قاسها إنسان آخر بذراعه القصيرة فسيكون هناك اختلاف في العدد سببه اختلاف المقياس مع سلامة القطعة من الزيادة أو النقصان في الحالين.

ترتيب الآيات في القرآن الكريم:

قال الإمام السيوطي رحمه الله تعالى: "الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفي لا شبهة في ذلك، أما الإجماع فنقله غير واحد منهم الزركشي في البرهان، وأبو جعفر بن الزبير في مناسباته، وعبارته: "ترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيفه -ﷺ- وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين"1، ثم ذكر عددا من النصوص والآثار الشاهدة على ذلك.

فقد كان جبريل عليه السلام ينزل بالآيات على الرسول -ﷺ- ويخبره بموضعها من السورة، ثم يقرؤها الرسول عليه الصلاة والسلام على أصحابه ويأمر كتاب الوحي بكتابتها بعد أن يبين لهم موضعها من السورة.

وكان عليه الصلاة والسلام يتلو آيات القرآن الكريم مرتبة في الصلوات المفروضة والنافلة، وفي مواضعه فيسمعها أصحابه ويحفظونها كما سمعوها، وكانوا يعرضون على الرسول -ﷺ- ما كتبوه على الترتيب المعروف وشاع ذلك وملأ البقاع، والأمة يتدارسونه فيما بينهم ويقرءونه في صلواتهم، ويأخذ بعضهم عن بعض بالترتيب القائم، فليس لأحد من الصحابة يد في ترتيب شيء من آيات القرآن الكريم2.

وقد نقل السيوطي عددا من نصوص العلماء في ذلك منها قول مكي وغيره ترتيب الآيات في السور بأمر من النبي ﷺ، وقال القاضي أبو بكر

في الانتصار: "ترتيب الآيات أمر واجب وحكم لازم فقد كان جبريل يقول: ضعوا آية كذا في موضع كذا وقال ابن الحصار ترتيب السور ووضع الآيات مواضعها إنما كان بالوحي كان رسول الله -ﷺ- يقول: "ضعوا آية كذا في موضع كذا" وقد حصل اليقين من النقل

المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة رسول الله -ﷺ- ومما أجمع الصحابة على وضعه هكذا في المصحف".

طريق معرفة بداية الآية ونهايتها:

للعلماء في طريق معرفة بداية الآية ونهايتها قولان:

• القول الأول:

أنه لا سبيل إلى معرفة بدايات الآيات ونهاياتها إلا بتوقيف من الشارع؛ لأنه ليس للقياس والرأي مجال فيه وإنما هو محض تعليم وإرشاد من الرسول -ﷺ- واستدلوا على ذلك بأدلة منها:

1- النصوص الواردة عن الرسول -ﷺ- بتحديد عدد الآيات في بعض السور أو تحديد مواضعها كقوله عليه الصلاة والسلام عن الفاتحة: "هي السبع المثاني" وقوله ﷺ: "من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه"

وقوله ﷺ: "تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء". وغير ذلك من الأحاديث الكثيرة، مما يدل على أنه لولا أن الرسول -ﷺ- هو الذي بين الآيات من حيث بداياتها ونهاياتها لما عرفنا بداية الآيتين في آخر سورة البقرة مثلا، ولا آية الصيف ولا الآيات السبع في الفاتحة.

- أن العلماء عدوا "الم" آية ولم يعدوا نظيرها "الر" آية وعدوا "المص" آية ولم يعدوا نظيرها وهو "المر" آية، وعدوا "يس" آية ولم يعدوا نظيرها "طس" آية، وعدوا "حم عسق" آيتين، ولم يعدوا نظيرها "كهيعص" آيتين، بل آية واحدة، فلو كان الأمر مبنياً على القياس لم يفرقوا بين المثليين.

• القول الثاني:

وقيل: إن معرفة بداية الآيات ونهاياتها منه ما هو سماعي ومنه ما هو قياسي ومرجع ذلك إلى الفاصلة للآية.

فما ثبت أن الرسول -ﷺ- وقف عليه دائماً تحققنا أنه رأس آية وما وصله دائماً علمنا أنه ليس بآية وما وقف عليه مرة ووصله أخرى احتتم الأمرين، وهذا مجال للقياس ولا محذور فيه لأنه لا يؤدي إلى زيادة ولا نقصان في آيات القرآن، وإنما غايته تعيين محل الفصل أو الوصل.

• والرأي الراجح:

أن معرفة بداية الآيات ونهاياتها توقيفي لا مجال للقياس فيه قال الزركشي: "قال بعضهم: الصحيح أنها إنما تعلم بتوقيف من الشارع لا مجال للقياس فيه كمعرفة السورة"3 وقال الزمخشري: "علم الآيات توقيفي لا مجال للقياس فيه".

فوائد معرفة الآيات:

ذكر العلماء لتقسيم السورة إلى آيات حكما كثيرة منها:

1. العلم بأن كل ثلاث آيات قصار معجزة للنبي ﷺ- وفي حكمها الآية الطويلة، وبيان ذلك أن سبحانه وتعالى تحدى الناس أن يأتوا بسورة من مثل القرآن وأقصر سورة في القرآن هي سورة الكوثر، وهي ثلاثة آيات قصار فدل على أن كل ثلاث آيات قصار معجزة.
2. يرى بعض العلماء أن الوقف على رأس الآية سنة، وتحديد رأس الآية معين على اتباع السنة.
3. هناك بعض الأحكام الفقهية المترتبة على معرفة الآي، ذكرها السيوطي 1 -رحمه الله تعالى- ومنها:
أ- اعتبارها فيمن جهل الفاتحة فإنه يجب عليه بدلها سبع آيات عند الشافعي.

فوائد عامة:

- أعلم أن العلماء -رحمهم الله تعالى- قد اختلفوا في عدد آيات القرآن الكريم وعدد كلماته وعدد حروفه، وسبب ذلك أن النبي ﷺ- كان يقف على رءوس الآي للتوقيف، فإذا علم محلها وصل للتمام فيحسب السامع أنها ليست فاصلة.
- ب- اعتبارها في خطبة الجمعة، فإنه يجب فيها قراءة آية كاملة من القرآن ولا يكفي شطرها إلا أن تكون طويلة.
- ج- اعتبارها في طول الصلاة فقد ورد أنه ﷺ يقرأ في الصبح بالستين إلى المائة آية، وكذا اتخاذها مقياساً زمنياً للفارق بين الأذان والإقامة.
- د- اعتبارها في قراءة قيام الليل وعدد الآيات للقيام.
- وسبب الاختلاف في عدد الحروف أن بعض العلماء يعد البسمة آية في أول كل سورة وبعضهم لا يعدها وأحرف المد ونحوها منهم من يعدها ومنهم من لا يعدها.
- وسبب الاختلاف في عدد كلمات القرآن أن الكلمة لها حقيقة ومجاز ولفظ ورسم واعتبار كل منها جائز، وكل من العلماء اعتبر أحد الجوائز.
- وأطول سورة في القرآن الكريم هي البقرة، وأقصر سورة هي الكوثر، وهي ثلاث آيات.
- وأطول آية: آية الدين وهي الآية 282 من سورة البقرة وأقصر آية "والضحى" و"الفجر".
- وأطول كلمة فيه لفظاً وكتابة: {فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ} 2.

أما أنصاف القرآن فثمانية:

- فنصفه بالحروف "النون" من قوله: {نُكْرًا} 3 في سورة الكهف والكاف من نصفه الثاني، وقيل عين {تَسْتَطِيعُ} 4 وقيل اللام الثانية من {وَلِيَتَلَطَّفْ} 5.
- ونصفه بالكلمات الدال من قوله: {وَالْجُلُودُ} 6 في سورة الحج وقوله تعالى: {وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ} 7 من نصفه الثاني.
- ونصفه بالآيات {يَأْفِكُونَ} 8 من سورة الشعراء وقوله تعالى: {فَأَلْفَيْ سَحْرَةٍ} 9 من نصفه الثاني
- ونصفه على عدد السور، فالأول "الحديد" والثاني من "المجادلة" 10.

قال السيوطي: والاشتغال باستيعاب أكثر ما اجتمع في القرآن من الحروف المتحركة متواليه ثمانية أحرف في سورة يوسف: {إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا} من الآية الرابعة.

وفي القرآن آية واحدة تجمع حروف المعجم هي قوله تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ} ، الآية 29 من سورة الفتح.

وفي القرآن سورة في كل آية منها اسم الله تعالى هي سورة المجادلة.

وفي القرآن آية فيها 16 ميمًا هي: {قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ ...} الآية 48 هود. وفي آية الدين 33 ميمًا.

وليس في القرآن حاء بعدها حاء إلا في موضعين.

- الأول في البقرة "235" {عُفْدَةَ النَّكَاحِ حَتَّى} .

والثاني في الكهف "60" {لَا أَبْرَحُ حَتَّى} .

وليس فيه كاف بعدها كاف في كلمة واحدة إلا في موضعين:

- البقرة "200" {مَنَّا سِيكُكُمْ} .

- وفي المدثر "42" {مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ} .

وعدد كلمات القرآن الكريم 77439 كلمة وقيل: 77437 وقيل: 77277 وقيل: غير ذلك.

وعدد حروفه 323015 حرفا وقيل: 321000 وقيل: 340740 حرفا.

ذلك مما لا طائل تحته 1.

"قلت": فيه رياضة للنفس وترويح للذهن في أظهر ميدان، والله أعلم.

المحاضرة السابعة بعنوان

المكي والمدني

من المعلوم أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- قضى فترة من حياته في مكة قبل البعثة وبعدها، ثم هاجر إلى المدينة النبوية وأقام فيها إلى وفاته صلى الله عليه وسلم. وقد نزل عليه القرآن الكريم في الأمصار والقرى والجبال والوهاد والأودية والسفوح والدور والبراري وفي أوقات مختلفة في الليل والنهار، والسفر، والحضر، والصيف، والشتاء، والسلم، والحرب. وقد اعتنى العلماء عناية فائقة في معرفة مكان النزول وزمن النزول لما في معرفة ذلك من فوائد عديدة لفهم النصوص القرآنية واستيفاء معانيها واستقصاء مدلولاتها. وعندما كان القرآن ينزل في مكة أول البعثة كان المسلمون قلة، وكان المشركون كثرة وللحديث مع الكفار أسلوبه ولمخاطبة المسلمين طريقته.

فالقُرآن في مكة يدافع عن القلة من المسلمين، ويفرق بهم وينافح عنهم وسط هذه البيئة من الأعداء المشركين وهم بحاجة إلى من يأخذ بأيديهم ويثبت قلوبهم.

والقرآن في مكة يقارع الخصوم ويحطم معتقداتهم الزائفة بالحجة والدليل ويدفع الشبهات، ويبطل الخرافات، ويكشف الأباطيل والترهات، وهم أهل لجاج وعناد، وإصرار واستكبار وظل القرآن ينافحهم حتى أقام الحجة عليهم وأنشأ جماعة إسلامية كانت نواة الدولة الإسلامية.

وهاجر الرسول -ﷺ- بهذه الجماعة والتقى بجماعة أخرى من المسلمين

في المدينة وأخى بين الجماعتين ومزج بينهما مزجا كان نتاجه نشأة الدولة الإسلامية الصالحة والمؤهلة لتلقي ما بقي من قواعد الإسلام وأحكام التشريع.

ونزل القرآن على المسلمين في المدينة ببسط أحكام الدين، ويرسي قواعده ويبني المجتمع الإسلامي ويؤسس صرح الدولة.

وبلا ريب أن معرفة ما نزل بمكة في تلك الظروف وتلك الأهداف والأغراض ومعرفة ما نزل في المدينة، كذلك يعطى منها سليما للدعوة الإسلامية ودروسا للدعاة في مختلف العصور والأمكنة

عناية الإسلام بالمكي والمدني

فلا عجب إذاً أن يعتني العلماء بذلك وأن يولوه اهتمامهم، فهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: "والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم أنزلت، وأين أنزلت إن ربي وهب لي قلبا عقولا ولسانا سئولا" ١.

وهذا ابن مسعود رضي الله عنه يقول: "والله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيم أنزلت ولو أعلم أحدا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه" ٢.

وقد اهتم العلماء من بعدهم بمعرفة المكي والمدني وأفرده جماعة بالتأليف منهم - كما يقول السيوطي - مكي، والعز الدريني ٣ وفي العصر الحديث صدرت دراسات كثيرة عن خصائص السور المكية، وخصائص السور المدنية.

كما اعتنى به العلماء في مؤلفاتهم فلا تكاد تجد كتابا يتناول علوم القرآن إلا وكان المكي والمدني أحد أبوابه وفصل القول فيه السيوطي وأشبع الكلام على أوجهه وأفرده بعضها بمباحث خاصة في كتابه الإتيقان ٤.

أنواع المكي والمدني:

وهي كثيرة منها:

ما نزل في مكة، وما نزل في المدينة، وما اختلف فيه، وترتيب ما نزل بمكة والمدينة، وما نزل بمكة وحكمه مدني، وما نزل بالمدينة وحكمه مكي وما نزل بمكة في أهل المدينة، وما نزل بالمدينة في أهل مكة، وما يشبه نزول المكي في المدني، وما يشبه نزول المدني في المكي، وما نزل بالجحفة، وما نزل ببيت المقدس وما نزل بالطائف، وما نزل بالحديبية، وما نزل ليلا، وما نزل نهارا، وما نزل صيفا وما نزل شتاء، وما نزل في الحضر، وما نزل في السفر، وما نزل مشيعا، وما نزل مفردا، والآيات المدنية في السور المكية، والآيات المكية في السور المدنية، وما حمل من مكة إلى المدينة، وما حمل من المدينة إلى مكة

السور المكية والسور المدنية:

اختلف العلماء في عدد السور المدنية، وقد نقل السيوطي عن ابن الحصار أن المدني عشرون سورة، والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة وما عدا ذلك مكي

السور المدنية: عشرون هي:

- ١- البقرة. ٢- آل عمران. ٣- النساء.
- ٤- المائدة. ٥- الأنفال. ٦- التوبة.
- ٧- النور. ٨- الأحزاب. ٩- محمد.
- ١٠- الفتح. ١١- الحجرات. ١٢- الحديد.
- ٣- المجادلة. ١٤- الحشر. ١٥- الممتحنة. ١٦- الجمعة.
- ١٧- المنافقون. ١٨- الطلاق. ١٩- التحريم. ٢٠- النصر.

واختلفوا في اثني عشرة سورة هي:

- ١- الفاتحة. ٢- الرعد. ٣- الرحمن. ٤- الصف.
- ٥- التغابن. ٦- المطففين. ٧- القدر. ٨- البينة.
- ٩- الزلزلة. ١٠- الإخلاص. ١١- الفلق. ١٢- الناس.

السور المكية:

ما عدا السور المذكورة فهو مكي وعددها اثنتان وثمانون سورة.

طريق معرفة المكي والمدني:

يعرف المكي والمدني بأحد طريقين:

الطريق الأول:

النقلي السماعي:

وهي الآيات والسور التي عرفنا أنها مكية أو مدنية بطريق الرواية عن أحد الصحابة الذين عاشوا فترة الوحي وشاهدوا التنزيل، أو عن أحد التابعين الذين سمعوا ذلك من الصحابة.

أما النبي -صلى الله عليه وسلم- فلم يرد عنه بيان للسور المكية والسور المدنية لأن هذا مما يشاهده ويحضره الصحابة -رضي الله عنهم- فكيف يخبرهم عن شيء يعلمونه! فالمكي والمدني يعرف بغير نص من الرسول صلى الله عليه وسلم.

قال الباقلاني: "إنما يرجع في معرفة المكي والمدني لحفظ الصحابة والتابعين، ولم يرد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في ذلك قول؛ لأنه لم يؤمر به ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة وإن وجب في بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ، فقد يعرف ذلك بغير نص من الرسول" ١.

ومن أمثلة ما عرف أنه مكي أو مدني عن طريق الصحابة رضي الله عنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١.

فقد أخرج البزار عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت لما أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومن المعلوم أن عمر قد أسلم في مكة فالآية إذًا مكية، وسورة الحج روى مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها مكية.

ومنها ما رواه مسلم عن سعيد بن جبيرة قال: قلت لابن عباس: أَلَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِدًا مِنْ تَوْبَةٍ؟ قال: لا. قال: فتلوت عليه هذه الآية التي في الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلى آخر الآية. قال: هذه آية مكية نسختها آية مدنية: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾.

ومنها حديث عائشة رضي الله عنها وفيه: "لقد نزل بمكة على محمد ﷺ - وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةَ أَذَى وَأَمْرٌ﴾ وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده".

الطريق الثاني: القياسي الاجتهادي:

نظر العلماء رحمهم الله تعالى في الآيات والسور التي عرفوا أنها مكية أو مدنية بالطريق الأول "السماعي النقلي" واستنبطوا خصائص وضوابط للسور المكية وخصائص وضوابط للسور المدنية، ثم نظروا في السور التي لم يرد نصوص في بيان مكان نزولها، فإن وجدوا فيها خصائص السور المكية قالوا إنها مكية، وإن وجدوا فيها خصائص السورة المدنية قالوا: إنها مدنية، وهذا يكون بالاجتهاد والقياس فسمي هذا الطريق بالقياسي الاجتهادي.

نقل الزركشي عن الجعبري قوله: "لمعرفة المكي والمدني طريقان:

سماعي، وقياسي، فالسماعي ما وصل إلينا نزوله بأحدهما، والقياسي كل سورة فيها: "يا أيها الناس" فقط، أو كلا، أو أولها حرف تهج سوى الزهراوين، والرعد، أو فيها قصة آدم وإبليس سوى الطولى فهي مكية، وكل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية مكية، وكل سورة فيها فريضة أو حد فهي مدنية"

تعريف المكي والمدني:

اختلف العلماء في المراد بالمكي والمدني ومتى تسمى السورة أو الآية مكية أو مدنية إلى ثلاثة أقوال: ويرجع اختلافهم إلى المعتبر في النزول، فمنهم من اعتبر مكان النزول، ومنهم من اعتبر زمن النزول، ومنهم من اعتبر المخاطبين بالآيات أو السورة، وعلى هذا:

• القول الأول:

لطائفة اعتبرت مكان النزول فقالت: ما نزل في مكة وما حولها ولو بعد الهجرة، فهو مكي، وما نزل في المدينة وما حولها، فهو مدني.

وهذا القول غير ضابط ولا حاصر؛ إذ إنه لا يشمل ما نزل من الآيات في غير مكة والمدينة وما حولهما، فقد نزلت آيات قرآنية في تبوك وفي بيت المقدس وفي الطائف، فالتعريف غير ضابط.

• والقول الثاني:

لطائفة اعتبرت المخاطب بالآية أو السورة وهذه الطائفة نظرت إلى أهل مكة وقت التنزيل، فوجدت أن الغالب على أهلها الكفر والمناسب لمخاطبتهم النداء بـ "يا أيها الناس" أو "يا بني آدم"

وبما أن الغالب على أهل المدينة هو الإيمان، فإن المناسب نداؤهم بـ "يا أيها الذين آمنوا"، وعلى هذا فالمكي عندهم ما كان فيه "يا أيها الناس" أو "يا بني آدم" والمدني ما كان فيه "يا أيها الذين آمنوا" نقل السيوطي عن أبي عبيد في الفضائل عن ميمون بن مهران قال: ما كان في القرآن "يا أيها الناس" أو "يا بني آدم" فإنه مكي وما كان "يا أيها الذين آمنوا" فإنه مدني.

وهذا القول أيضاً غير ضابط ولا حاصر من وجهين:

1. الأول: ضعف هذا القول ابن الحصار فقال: اتفق الناس على أن "النساء" مدنية وأولها "يا أيها الناس" وعلى أن "الحج" مكية وفيها: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا} 1 وقال غيره هذا القول إن أخذ على إطلاقه فيه نظر. فإن سورة البقرة مدنية وفيها: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ} 2. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ} 3 وسورة النساء مدنية وأولها: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} 4. وبهذا يكون هذا القول غير ضابط وغير مطرد.
2. الثاني: أن هناك آيات كثيرة وسور عديدة ليس فيها نداء بـ "يا أيها الناس" ولا بـ "يا أيها الذين آمنوا"، وهذا القول لا يشملها فلا يكون ضابطاً ولا حاصراً.

• القول الثالث

لطائفة اعتبرت الزمان ورأت أن الهجرة هي الحد الفاصل بين المكي والمدني، فما نزل قبل الهجرة فهو مكي، وما نزل بعد الهجرة فهو مدني وإن نزل في مكة

قالوا: "وما نزل في طريق المدينة قبل أن يبلغ النبي -صلى الله عليه وسلم- المدينة فهو من المكي".

وهذا التعريف ضابط وحاصر لا تخرج عنه آية من آيات القرآن الكريم وعليه فإن قوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} 2. مدنية مع أنها نزلت في عرفات بمكة، بل إن قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا} 3. مدنية مع أنها نزلت في جوف الكعبة لأن هاتين الآيتين نزلتا بعد الهجرة عام الفتح.

ضوابط المكي والمدني

ونعني بالضوابط خصائص الألفاظ، ونعني بالميزات خصائص الأسلوب والمعاني والأغراض للسور المكية أو المدنية.
من ضوابط السور المكية:

1. كل سورة فيها "كلا" فهي مكية.

وردت في القرآن ثلاثاً وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة كلها في النصف الأخير من القرآن قال الشيخ الدريني رحمه الله تعالى: وما نزلت كلا بيثرب فاعلمن ... ولم تأت في القرآن في نصفه الأعلى

وحكمة ذلك أن كلا للردع والزجر، وهذا إنما يكون للمعاندين المستكبرين فهو مناسب لمخاطبة المشركين في مكة.

2. كل سورة فيها سجدة تلاوة فهي مكية. وهي أربع عشرة سجدة هي الأعراف والردع، والنحل، والإسراء،

ومريم، وفي الحج سجدتان، والفرقان، والنمل، والسجدة، وفصلت، والنجم، والانشقاق، وقرأ باسم ربك، وأما سورة "ص" فيستحب السجود، وليست من عزائم السجود وزاد بعضهم آخر الحجر 3 وفي الردع خلاف.

3. كل سورة مبدوءه بقسم وهي خمس عشرة سورة هي الصافات، الذاريات، الطور، النجم، المرسلات، النازعات، البروج، الطارق، الفجر، الشمس، الليل، الضحى، التين، العاديات، العصر.

4. كل سورة مفتحة بأحرف التهجي مثل "الم" "حم" وغيرها سوى البقرة وآل عمران، فإنها مدنيتان بالإجماع وفي الردع خلاف.

5. كل سورة فيها يأبها الناس وليست فيها يأبها الذين آمنوا فهي مكية إلا سورة الحج فإنها مكية مع أن في آخرها يأبها الذين آمنوا.

6. كل سورة مفتحة بـ "الحمد" فهي مكية وهي خمس سور.

7. كل سورة فيها قصص الأنبياء ما عدا البقرة.

مميزات السور المكية:

من المعلوم أن ما نزل من القرآن في مكة كان يخاطب مجتمعا وثنيا فشا فيه الشرك، وانتشرت فيه الأصنام، ولم يتلق الدعوة الإسلامية بالقبول والتسليم، بل أخذ يناوؤها العدا، ويضطهد أتباعها، ويحارب رسولها.

وفي المدينة كان القرآن الكريم غالبا يخاطب أتباعه المؤمنين يأمرهم فينقادون إليه، وينهاهم فينتهون عما نهى عنه.

وإذا كان الأمر كذلك فلا شك أن البلاغة تقتضي الاختلاف في الأسلوب والاختلاف في المعاني والموضوعات بين ما نزل في مكة، وما نزل في المدينة، فمن مميزات السور المكية:

1. تأسيس العقيدة الإسلامية في النفوس بالدعوة إلى عبادة الله وحده والإيمان برسالة محمد -صلى الله عليه وسلم-

وباليوم الآخر، وإبطال المعتقدات الوثنية الجاهلية وعبادة غير الله وإيراد الحجج والبراهين على ذلك.

2. تشريع أصول العبادات والمعاملات والأداب والفضائل العامة ففي مكة فرضت الصلوات الخمس مثلا وحرّم أكل مال اليتيم ظلماً، كما حرّم الكبر والخيلاء ونحوها.

3. الاهتمام بتفصيل قصص الأنبياء والأمم السابقة، وبيان ما دعا إليه الأنبياء السابقون من عقائد، ومواقف أممهم منهم وما نزل بالمكذّبين من عذاب دنيوي جزاء تكذيبهم وإيراد الحوار بين الأنبياء وخصومهم وإبطال حججهم بما يوحي إلى أهل مكة بوجوب أخذ العبرة من هؤلاء وفي هذا بسط أيضا للعقيدة الإسلامية الصحيحة.

4. قصر السور الآيات مع قوة جرس الألفاظ ووقعها. وإيجاز العبارة مع بلاغة المعنى ووفائه، وذلك أن القوم في مكة كانوا معاندين مستكبرين لا يريدون سماع القرآن، بل كانوا إذا شرع الرسول -ﷺ- في القراءة يتنادون: {لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ}.

ولا يناسب هذا المقام طول الآيات والمقاطع، بل يناسبه إيجازها وقوة معانيها.

ضوابط السور المدنية:

1. كل سورة فيها يأيها الذين آمنوا وليس فيها يأيها الناس فهي مدنية، قال السيوطي عن علقمة عن عبد الله "يعني ابن مسعود رضي الله عنه" قال: ما كان يأيها الذين آمنوا أنزل بالمدينة، وما كان يأيها الناس فبمكة.. ثم قال: قال ابن عطية وابن الفرس وغيرهما: هو في يأيها الذين آمنوا صحيح، وأما يأيها الناس فقد يأتي في المدني".
2. كل سورة فيها ذكر للمنافقين قال مكي بن أبي طالب القيسي: "كل سورة فيها ذكر المنافقين فمدنية وزاد غيره سوى العنكبوت".

والصحيح أن أول العنكبوت الذي ورد فيه ذكر المنافقين مدني لما أخرجه ابن جرير في سبب نزولها.

3. كل سورة ورد فيها حد أو بيان فريضة، قال عروة بن الزبير: "ما كان من حد أو فريضة فإنه أنزل بالمدينة". وقال محمد بن السائب الكلبي: "كل سورة ذكرت فيها الحدود والفرائض فهي مدنية".

مميزات السور المدنية:

- 1- يخاطب القرآن في المدينة -غالبا- مجتمعا إسلاميا فكان الغالب تقرير الأحكام التشريعية للعبادات والمعاملات والحدود والفرائض، وأحكام الجهاد وغيرها.
- 2- نشأ في المجتمع المدني طائفة من المنافقين فتحدث القرآن الكريم عن طبائعهم وهتك أستارهم، وبين خطرهم على الإسلام والمسلمين وكشف عن وسائلهم ومكائدهم وخباياهم ومخططاتهم للكيد للمسلمين، ولم يكن في مكة نفاق لأن المسلمين كانوا قلة مستضعفين فكان الكفار يحاربونهم جهارا.
- 3- عاش بين المسلمين في المدينة طائفة من أهل الكتاب وهم اليهود، وكانوا يمكرون مكرًا سيئًا، ويكيدون للإسلام وأهله فكشف القرآن في المدينة سرانهم وأبطل عقائدهم، وكشف تحريفهم لديانتهم، وبين بطلان عقائدهم، ودعاهم إلى الإسلام بالحجة والدليل والبرهان.
- 4- الغالب على الآيات والسور المدنية طول المقاطع والسور لبسط العقائد الإسلامية والأحكام التشريعية، فقد كان أهل المدينة مسلمين يقبلون على سماع القرآن، وينصتون حتى كأن على رؤوسهم الطير، فالمقام ليس مقارعة ولجاجا يناسبه الإيجاز بل المقام مقام إقبال وإنصات وإذعان يناسبه الاسترسال والإطناب.

فوائد معرفة المكي والمدني:

1. تمييز الناسخ من المنسوخ فإن المتأخر ناسخ للمتقدم.
2. الاستعانة به في تفسير القرآن الكريم، فإن معرفة مكان النزول يعين على فهم المراد بالآية، ومعرفة مدلولاتها وما يرد فيها من إشارات أحيانا.
3. معرفة تاريخ التشريع وتدرجه في التكليف ويترتب على هذا الإيمان بأن هذا التدرج لا يكون إلا من عليم خبير، عزيز حكيم، رحمن رحيم.
4. الاستفادة من أسلوب القرآن في الدعوة إلى الله تعالى فهو أسلوب يشد ويلين ويفصل ويجمل، ويعد ويتوعد، ويرغب ويرهب، ويوجز ويطنب حسب أحوال المخاطبين، وهذا من أسرار الإعجاز في القرآن الكريم.

5. استخراج سيرة الرسول ﷺ- وذلك بمتابعة أحواله في مكة ومواقفه في الدعوة، ثم أحواله في المدينة وسيرته في الدعوة إلى الله فيها واقتداء الدعاة بهذا المنهج النبوي الحكيم في الدعوة.
- وقد عني بعض المؤرخين بهذا الجانب فوضعوا المؤلفات في سيرة النبي ﷺ- على ضوء القرآن الكريم.
6. بيان عناية المسلمين بالقرآن الكريم واهتمامهم به حتى إنهم لم يكتفوا بحفظ النص القرآني بل تتبعوا مكان نزوله ومعرفة ما نزل قبل الهجرة وما نزل بعدها وما نزل بالليل وما نزل بالنهار وما نزل في الصيف وما نزل في الشتاء ويتبع هذا الاقتداء بهم في دراسة القرآن وعلومه.

المحاضرة الثامنة بعنوان

أسباب النزول

من المعلوم أن سبب نزول آيات القرآن الكريم كلها هو هداية الناس إلى الحق والصراط المستقيم، لكن هناك آيات تزيد على هذا السبب العام بسبب خاص مرتبط بها وحدها دون غيرها وهذا السبب الخاص هو الذي يبحثه العلماء تحت هذا الموضوع. وعلى هذا فإن آيات القرآن الكريم تنقسم من حيث سبب النزول وعدمه إلى قسمين:

- الأول: قسم نزل من الله ابتداء غير مرتبط بسبب من الأسباب الخاصة وإنما هو مرتبط بالسبب العام وهو هداية الناس، وهذا القسم هو أكثر آيات القرآن الكريم.
- الثاني: قسم نزل مرتبطا بسبب من الأسباب الخاصة يسميه العلماء "سبب نزول الآية" وآيات هذا القسم هي الأقل وأهميتها أفردتها العلماء بالدراسة والبيان.

عناية العلماء بأسباب النزول:

اعتنى العلماء -رحمهم الله تعالى- عناية فائقة بدراسة أسباب النزول وتظهر عنايتهم في ثلاث صور:

- الأولى: أنهم أفردوا أسباب النزول بباب مستقل من أبواب علوم القرآن الكريم في مؤلفاتهم.
- الثانية: أن المفسرين يوردون أول ما يوردون في تفسير الآية سبب نزولها -إن كان لها سبب نزول- ويعتنون بذلك ويستندون إليه في تفسير الآية.
- الثالثة: أن العلماء أفردوا أسباب النزول بمؤلفات مستقلة وهي مؤلفات كثيرة، وأول من أفرده، بالتأليف علي بن المديني "ت234هـ" وممن ألف فيه عبد الرحمن بن محمد المعروف بمطرف الأندلسي "ت402هـ" فقد ألف كتابه "القصص والأسباب التي نزل من أجلها القرآن". ومنهم أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي "ت468هـ" واسم كتابه "أسباب النزول"، وطبع مرارًا وقد اختصر الجعبري هذا الكتاب بحذف أسانيده ومنهم ابن الجوزي "ت597هـ" واسم كتابه "أسباب نزول القرآن" ومنهم ابن حجر العسقلاني "ت852هـ" واسم كتابه "العجاب في بيان الأسباب" وقد ذكر السيوطي أنه اطلع على مسودة هذا الكتاب وأن ابن حجر مات قبل أن يبيضه.
- ومنهم السيوطي "ت911هـ" الذي ألف كتابا سماه "لباب النقول في أسباب النزول" وطبع في مجلد واحد، ولا أعرف أحداً اعتنى بتحقيقه.
- ومن المؤلفات الحديثة كتاب "جامع النقول في أسباب النزول" وشرح آياتها للأستاذ ابن خليفة عليوي وهو في جزأين.
- ومنها كتاب "الصحيح المسند من أسباب النزول" للشيخ مقبل بن هادي الوادعي.
- ومنها كتاب "نهاية السؤل فيما استدرك على الواحدي والسيوطي من أسباب النزول" تأليف د. أبو عمر نادي بن محمد الأزهري.

تعريف سبب النزول:

هو "ما نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه" كحادثة تقع حين نزول القرآن الكريم فتنزل آية أو آيات من القرآن تبين الحكم فيها أو كسؤال يوجه إلى الرسول ﷺ - فتنزل آية أو آيات من القرآن الكريم وفيها الإجابة عليه.

ويفيد قولنا "وقت وقوعه" أنه لا بد أن يكون نزول الآيات وقت وقوع الحادثة أو توجيه السؤال فإن كانت الحادثة قبل نزول الآيات بزمان طويل خرج ذلك عن هذا الباب وصار من باب

الإخبار عن الوقائع الماضية والأمم السابقة كالأيات التي تتحدث عن خلق آدم عليه السلام، وقصته مع إبليس، وقصة إبنى آدم، وقصص الأنبياء السابقين كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم عليهم السلام، فإن الحديث عن ذلك ليس من هذا الباب.

ولا يلزم أن يكون نزول الآيات بعد الحادثة أو السؤال مباشرة، بل يصح أن يتأخر زما يسيرا فإن قوله تعالى: {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا}. قد نزل بعد خمس عشرة ليلة من الحادثة وكذا الآيات المتعلقة بحادثة الإفك إنما نزلت بعد نحو شهر منها.

والحادثة:

التي ينزل القرآن لأجلها قد تكون من الرسول -ﷺ- كما حدث في سبب نزول سورة عبس حين جاء ابن أم مكتوم إلى الرسول -ﷺ- وهو يناجي بعض زعماء قريش ويدعوهم إلى الإسلام، فجاءه ابن أم مكتوم وقال: يا رسول الله علمني مما علمك الله وجعل يناديه ويكرر النداء والرسول -ﷺ- مشغول عنه ومقبل على هؤلاء النفر فنزلت سورة عبس. فكان الرسول -ﷺ- إذا رأى ابن أم مكتوم بعد ذلك يقول: "مرحبًا بمن عاتبني فيه ربي".

وقد تكون الحادثة من جماعة من الصحابة -رضي الله عنهم- كأولئك الصحابة الذين كانوا يصفون المنافقين ويواصلون رجالا من اليهود لما كان بينهم من القرابة والصداقة والجلف والجوار والرضاع فأنزل الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤًا مَا عُنْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ}.

وقد تكون الحادثة من المشركين أو من اليهود أو من المنافقين والأمثلة على ذلك كثيرة.

كما أن السؤال قد يكون عن ماض كقوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلْنَا مِنْهُمْ فَأَجِبْ لَهُمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَبْلُغَ أَكْبَارَهُمْ وَهُُمْ يُكْفِرُونَ}، أو عن حاضر كقوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ}، وقوله سبحانه: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ} أو عن مستقبل كقوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ}، وقوله: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ}.

طريق معرفة سبب النزول:

سبب النزول حادثة من أحداث التاريخ الواقعة في عهد الرسول -ﷺ- ولهذا فلا طريق لمعرفته إلا طريق الرواية الصحيحة عن شاهده وحضره ولا يمكن الاجتهاد في معرفة ذلك، بل لا يجوز لأنه من القول في القرآن بغير علم قال تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}.

وقال -ﷺ-: "من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار" رواه الترمذي. وقال هذا حديث حسن.

روى الواحدي عن محمد بن سيرين قال: سألت عبيدة عن آية من القرآن فقال: اتق الله، وقل سدادًا، ذهب الذين يعلمون فيما أنزل القرآن 1. وقال الواحدي: "ولا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب".

وإذا ورد سبب النزول عن صحابي فلا تخلو عبارته أن تكون جازمة وصريحة في السببية فلها حكم الحديث المرفوع. وإما أن تكون العبارة غير صريحة كأن يقول: "نزلت هذه الآية في كذا" فإنها

تحتمل أن المراد بها سبب النزول وتحتمل أن هذا داخل في الآية وإن لم يكن السبب، بل يراد بيان حكم من الأحكام الواردة في الآية.

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: "وقد تنازع العلماء في قول الصحاب: "نزلت هذا الآية في كذا" هل يجري مجرى المسند، كما لو ذكر السبب الذي أنزلت لأجله أو يجري مجرى التفسير منه الذي ليس بمسند؟ فالبخاري يدخله في المسند، وغيره لا يدخله في المسند، وأكثر المسانيد على هذا الاصطلاح كمسند أحمد وغيره وبخلاف ما إذا ذكر سببا نزلت عقبه، فإنهم كلهم يدخلون مثل هذا في المسند".

وإذا ورد سبب النزول عن تابعي فيشترط لقبوله أربعة شروط:

1. أن تكون عبارته صريحة في السببية: بأن يقول: "سبب نزول هذه الآية كذا" أو أن يأتي بفاء تعقيبية داخلية على مادة النزول بعد ذكر حادثة أو سؤال، كأن يقول حدث كذا وكذا أو سئل رسول الله -ﷺ- عن كذا فأنزل الله تعالى هذه الآية أو فنزلت هذه الآية
2. أن يكون الإسناد صحيحًا.
3. أن يكون التابعي من أئمة التفسير الذين أخذوه عن الصحابة.
4. أن يعتضد برواية تابعي آخر تتوافر فيه نفس الشروط وإذا اكتملت هذه الشروط في رواية تابعي قبلت وصار لها حكم الحديث المرسل.

قال السيوطي -رحمه الله تعالى- عن سبب النزول إذا ورد عن تابعي أنه "قد يقبل إذا صح المسند إليه، وكان من أئمة التفسير الأخذين عن الصحابة كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير أو اعتضد بمرسل آخر ونحو ذلك".

وبهذا ندرك الحيطة الشديدة التي اتخذها العلماء -رحمهم الله تعالى- لصيانة تفسير القرآن من الدخيل والتحريف والتبديل.

فوائد معرفة سبب النزول:

لمعرفة سبب النزول فوائد كثيرة من أهمها:

- 1- معرفة حكمة التشريع. وأنه قام على رعاية مصلحة الأمة ودفع الضرر عنها وجلب الخير لها والرحمة بها وذلك كحادثة خولة بنت ثعلبة -رضي الله عنها- حين جاءت إلى الرسول -ﷺ- تشتكي زوجها وهي تقول: يا رسول الله أبلى شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبر سني، وانقطع ولدي، ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك. فنزل قوله تعالى: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا} وهو أوس بن الصامت. فشرع الله تعالى الكفارة رحمة بها وبأمثالها وصيانة للأسرة في المجتمع الإسلامي من التفكك وحماية للأبناء من التشرذم.
- 2- معرفة سبب النزول يعين على فهم المراد بالآية وتفسيرها والتفسير الصحيح ودفع اللبس والإشكال عن معناها قال الواحدي عن أسباب النزول

هي أوفى ما يجب الوقوف عليها، وأولى ما تصرف العناية إليها لامتناع معرفة تفسير الآية وقصد سببها، دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها". وقال أبو الفتح القشيري: "بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني الكتاب العزيز". وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى: "ومعرفة سبب النزول يعين على فهم الآية؛ فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب ولهذا كان أصح قولي الفقهاء، أنه إذا لم يعرف ما نواه الحالف رجع إلى سبب يمينه وما هيجها وأثارها".

ومن الأمثلة على ذلك:

- 1- قوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ}.

فظاهر هذه الآية يدل على أن للإنسان أن يصلي إلى أية جهة شاء ولا يجب عليه استقبال القبلة لا في سفر ولا في حضر ولا في فرض ولا في نافلة وهذا مخالف لما هو معلوم من الأدلة الأخرى في الكتاب والسنة بوجود التوجه إلى شطر المسجد الحرام. ويزول الإشكال إذا عرف سبب نزول هذه الآية كما رواه جابر بن عبد الله -رضي الله عنه- قال: "بعث رسول الله -ﷺ- سرية كنت فيها فأصابتنا ظلمة فلم نعرف القبلة فقالت طائفة منا قد عرفنا؛ القبلة

هي ههنا قبل الشمال، فصلوا وخطوا خطوطاً، وقال بعضنا: القبلة ههنا قبل الجنوب فصلوا وخطوا خطوطاً، فلما أصبحوا وطلعت الشمس أصبحت تلك الخطوط لغير القبلة، فلما قفلنا من سفرنا سألنا النبي -ﷺ- عن ذلك، فسكت فأنزل الله تعالى: {وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ} 5.

روى مسلم في صحيحه عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: كان رسول الله -ﷺ- يصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه قال: وفيه نزلت: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ}.

وبهذا ندرك أن هذه الآية خاصة بمن صلى وهو لا يعرف القبلة ثم يتبين له خطؤه فإنه لا يعيد الصلاة، وكذا في صلاة النافلة على الراحلة في السفر لا يلزم التوجه إلى القبلة. وبمعرفة سبب النزول زال الإشكال.

2- قوله تعالى: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا}.

فظاهر هذه الآية نفي الجناح عن طاف بالصفا والمروة مع أن الطواف بهما فرض، والتعبير بنفي

الإثم لا يدل على الفرضية، وإذا عرف سبب النزول زال الإشكال:

فقد كان للمشركين أصنام على الصفا والمروة وكانوا يطوفون بهما فلما جاء الإسلام تخرج هؤلاء عن الطواف بهما فنزلت هذه الآية، وقد روى البخاري عن أنس -رضي الله عنه- أنه سئل: أكنتم تكرهون السعي بين الصفا والمروة؟ قال: نعم، لأنها كانت من شعار الجاهلية حتى أنزل الله {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا}.

فدل سبب النزول على أن المراد بالآية نفي ما قر في أذهان بعض الصحابة من التخرج من السعي بين الصفا والمروة والاعتقاد بتحريم ذلك؛ لأنه من عمل الجاهلية فنزلت الآية لهذا الإثم ورافعة للتخرج.

3- ومن فوائد معرفة سبب النزول تيسير الحفظ وتسهيل الفهم

تثبيت الوحي في ذهن كل من يسمع الآية، إذا عرف سبب نزولها لأن ربط الأسباب بالمسببات والأحكام بالحوادث، والحوادث بالأشخاص والأزمنة والأمكنة كل ذلك من دواعي ثبوت المعلومات في الذهن وسهولة استذكارها عند تذكر بعضها، وذلك ما يعرف في علم النفس بقانون "تداعي المعاني".

4- معرفة من نزلت فيه الآية بعينه حتى لا يبرأ المتهم أو يتهم البريء وحتى لا يزعم أحد أن المراد بالذم في تلك الآية فلان من الصحابة وهو بريء، أو ينسب إلى آخر صفات مدح في آية، والمراد بها غيره، وفي تفاسير الشيعة كثير من هذا النوع، فلا تكاد تجد آية فيها مدح وثناء على أحد أيا كان إلا وأصقوها بأحد أئمتهم، ولا يدعون آية فيها ذم إلا وأصقوها بمخالفهم أو بأحد صحابة رسول -ﷺ- كأبي بكر وعمر وعثمان وعائشة وغيرهم رضي الله عنهم.

وقد روى البخاري -رحمه الله تعالى- أن مروان بن الحكم كان على الحجاز استعمله معاوية فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئاً فقال: خذوه، فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل الله فيه: {وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفِ لَكُمْ مَا أُعِدِّانِي}. فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلا أن الله أنزل عذري.

- ومن فوائد معرفة أسباب النزول:

5- معرفة أن سبب النزول غير خارج عن حكم الآية إذا ورد مخصص لها.

وبيان ذلك أن اللفظ قد يكون عامًا ويقوم دليل على تخصيصه فلا يجوز إخراج السبب من حكم الآية بالاجتهاد والإجماع لأن دخول السبب قطعي. وإخراجه بدليل التخصيص اجتهادي، والاجتهاد ظني، ولا يجوز إخراج القطعي بالظني.

ومثال ذلك قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}.

وسبب نزول هذه الآية حادثة الإفك المشهورة ولفظ الآية عام بالوعيد يشمل التائب وغير التائب. لكن الآية الأخرى استثنت من تاب فقال تعالى: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ، إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}.

فاللفظ الآية هنا عام ثم خصص بقوله تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ}

وبهذا التخصيص نخصص عموم الآية الأولى: {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ} الآية، لكن التخصيص للآية الأولى لا يشمل سبب نزولها وهو قذف عائشة -رضي الله عنها- فيبقى على عمومها بعدم قبول توبة من قذفها لأن دخوله في لفظ الآية الأولى العام قطعي وإخراجه بما ورد في الآية الثانية اجتهادي ظني والقطعي لا يخرج بالظني.

وبهذا يبقى حكم عدم قبول توبة القاذف خاصًا بقذف عائشة وأمهات المؤمنين، ويكون قبول التوبة في قذف غيرهن، ولذا قال ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ} نزلت في عائشة خاصة.

وفي حديث آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: "هذه في عائشة وأزواج النبي -ﷺ- ولم يجعل الله لمن فعل ذلك توبة وجعل لمن رمى امرأة من المؤمنات من غير أزواج النبي -ﷺ- التوبة، ثم قرأ: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ} إلى قوله: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا}.

فجعل لمن قذف امرأة من المؤمنات التوبة ولم يجعل لمن قذف امرأة من أزواج النبي -ﷺ- توبة.

والخلاصة أن الثانية خصت عموم الآية الأولى إلا سبب النزول فلا تخصصه لأن دخوله قطعي وتخصيصها ظني.

6- تخصيص الحكم بالسبب عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ.

ومثال قوله تعالى: {لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.

فقد أشكل عموم هذه الآية على مروان بن الحكم فقال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقال: لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي، وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبًا، لنعذب أجمعين فقال ابن عباس: وما لكم ولهذا إنما دعا النبي -ﷺ- يهود فسألهم عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره فأروه أن قد استحمدوا إليه ما أخبروه عنه فيما سألهم وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم ثم قرأ ابن عباس: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} 3. كذلك حتى قوله: {يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا}

- ومن فوائد معرفة سبب النزول كشف وجه من وجوه بلاغة القرآن الكريم حيث مراعاة الكلام لمقتضى الاستفادة من معرفة سبب النزول في مجال التربية والتعليم:

نقل المعلومات من ذهن إلى ذهن يحتاج إلى أمرين مهمين:

- أولهما: القدرة من المدرس.
- ثانيهما: الاستعداد من الطالب.

ولا نجاح للعملية التعليمية ما لم يكن عند مدرس المادة قدرة على التعبير الصحيح عما يريد إيصاله إلى أذهان الطلاب.
ولا نجاح للعملية ما لم يكن ذهن الطالب مهيباً ومشروعاً أبوابه لدخول المادة العلمية. وفتح ذهن الطالب عملية مشتركة بين الطالب والمدرس.

فالمدرس الناجح هو الذي يستطيع أن يثير مشاعر الطلاب ويجذب انتباههم، ويهيئ نفوسهم لتقبل المادة العلمية، وليست هذه المهمة بالمهمة السهلة، بل تحتاج إلى جهد كبير، وفطنة لمآحة.

والتمهيد للدرس من أهم مراحلها، وهي مرحلة تحتاج إلى خبرة ودراية:

1. للربط بين المعلومات.

2. لتأسيس قاعدة يقف عليها ذهن الطالب للإنطلاق من معلومة إلى معلومة أو من الكل إلى الجزء، إلى أن يدرك عناصر الدرس ويستوعبها.

3. لإثارة انتباه الطلاب وجذب مشاعرهم.

وعرض سبب النزول سبيل ناجح لتحقيق هذه الأمور في تدريس تلاوة القرآن الكريم، وتدريس تفسير القرآن الكريم، إذ إن سبب النزول -كما أشرنا في التعريف- لا يخلو من أن يكون حادثة أو سؤالاً، ومثل هذا كاف لجذب انتباه الطلاب وربطهم بالمادة العلمية، وتزويدهم بمعلومة عامة ينطلقون منها إلى التفصيل ومعرفة ما يتعلق بالآية من تفسير لمفرداتها. وبيان أحكامها وإدراك لأسرار التشريع فيها، وتوثيق صلتهم بالآية.

أي الحال وذلك بالمطابقة والمقارنة بين الحادثة والنص القرآني الذي نزل فيها.

وإذا كان عرض سبب النزول طريقة ناجحة للتمهيد لدرس التلاوة ودرس التفسير مثلاً، فإنه يمكن الاستفادة من هذا الأسلوب في سائر المواد بأن يبدأ المدرس بعرض قصة مناسبة تلائم المادة العلمية التي يريد عرضها، أو يوجه سؤالاً يجذب به انتباه الطلاب، ثم ينطلق إلى درسه بعد أن يطمئن إلى إقبال الطلاب عليه وتوجه أذهانهم إليه؛ فيسهل حينئذ تلقينهم للدرس، واستيعابهم له.

المحاضرة التاسعة بعنوان

الوحي:

حاجة البشر إليه:

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان في أحسن تقويم وركبه أحسن تركيب وجعله من:

1. جسد.

2. روح.

قال تعالى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}.

وحين نتأمل في غذاء كل من هذين العنصرين "الروح والجسد" نجد أن الجسد خلق من تراب وأن غذاءه من التراب "نبات أو حيوان يتغذى بالنبات". وأنه إذا مات يتحلل ويعود إلى التراب! ولذلك يتمنى الكافر يوم القيامة لو أنه بقي على أصله الترابي الأول فيقول: {لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا} .

أما الروح فمن الله: {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي}.

وإن كانت النسبة إضافة تشريف فلا بد أن يكون غذاؤها من الله وليس من التراب ولا من خلق من التراب، فإن التزمت بالغذاء الرباني

صعدت بعد الموت إلى عليين وفتحت لها أبواب السماء: {يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً}، وإن حادث وأبت إلا الغذاء الترابي أغلقت في وجهها أبواب السماء قال تعالى: {لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ}، قال كعب: "أرواح المؤمنين في عليين في السماء السابعة، وأرواح الكفار في سجين في الأرض السابعة تحت جند إبليس".

وغذاء الجسد فيه النافع والضار فإذا غذى الإنسان جسده بالغذاء الجيد صح وقوي بناؤه وظل حيا طريا متماسكا، وإذا غداه بالغذاء الرديء أو أهمل غذاءه ضعف وانحرف مزاجه، وساءت صحته، وخارت قواه، وهزل وذبل.

وكذا غذاء الروح فيه النافع والضار فإذا غذي الإنسان روحه بالغذاء السليم سمت وارتفعت وصحت وسلمت من الأمراض. وغذاؤها صحة الاعتقاد، وسلامتها باتصالها بالله تعالى، قال تعالى: {أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ}.

وإذا أهمل الإنسان غذاء روحه أو غذاها بالغذاء البشري بأن جعل صلتها بالمبادئ الوضعية والمعتقدات الزائفة أو انقادت لمذلات الجسد الترابي فتغذت بغذائه واستغنت به عن غذائها الرباني ضعفت وخارت وتاهت وانحرف مزاجها ولم يقر لها قرارا وضافت عليها الأرض على سعتها.

قال تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا}، {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ}. وقد تطلب الخروج من هذا الجسد الذي ضاقت به وضاق بها فتودي بصاحبها إلى الانتحار ...

إذن فإن على الإنسان أن يحرص على اختيار غذاء الروح كما يحرص على اختيار غذاء الجسد، وأن يسأل أطباء الأرواح عن غذائها النافع كما يحرص على سؤال أطباء الأبدان عن غذاء الجسد الفاني وعليه أن يعرض روحه على أهل الذكر كما يعرض جسده على أهل الطب وأن يعالج روحه كما يعالج بدنه، وأن يتفقد كما يتفقد بدنه، وأن يحاسبها دورياً كما يجري الفحوص الدورية لجسد

وإذا كان غذاء هذه الأجساد الترابية السفلية الفانية من أصلها الترابي يستمد، فإن غذاء هذه الأرواح السامية الباقية من الله العلي الباقي الدائم يستمد.

وقد هيا الله - عز شأنه - الطعام المناسب لكل من هذين العنصرين فجعل غذاء هذا الجسد من التراب الذي خلق منه يحرث الأرض ويزرعها فينبت الطعام أو يحفرها الماء أو يجده أقرب من ذلك فوقها.

وهذه الروح من الله فجعل غذاءها من عنده ينزل به الروح الأمين على الرسل فتنتشره بين الناس وتدعوا إليه فمن اهتدى فقد اهتدى لنفسه ومن ضل فعليها.

فإذا كان الله سبحانه يهيئ الطعام لهذه الأجساد فلا عجب أن يهيئ الطعام لهذه الأرواح ومن الجهل كل الجهل والضلال كل الضلال الاعتقاد

أن الإنسان بعقله أصبح يعرف الحق من الباطل فليس هو بحاجة إلى من يخبره بذلك، لا يصح هذا لأن الروح لا تزال بحاجة إلى غذائها العلوي ما بقيت في الجسد كما أن الجسد لا يزال بحاجة إلى غذائه السلفي ما بقيت فيه روح.

وإن من رحمة الله تعالى بعباده أن أنزل جبريل عليه السلام بغذاء الأرواح إلى الأنبياء عليهم السلام كما خلق لهذه الأجساد غذاءها، ولا ينكر هذه الحاجة إلا مكابر معاند أو جاهل أحمق.

فالوحي من الله رحمة بعباده لتتغذى به الأرواح، وخلق الطعام رحمة من الله بعباده لتتغذى به الأجساد، وبقاء العنصرين يبقى الإنسان وبفقد أحدهما يهلك.

والقرآن وحي: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا}، وسنة الرسول ﷺ وحي: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ}

تعريف الوحي:

الوحي لغة:

أصل الوحي في اللغة إعلام في خفاء، وقال الحرالي: هو إلقاء المعنى في النفس في خفاء قال الأزهرى: وكذلك الإشارة والإيماء يسمى وحيًا والكتابة تسمى وحيًا وقال الراغب الأصفهاني: أصل الوحي الإشارة السريعة ولتضمن السرعة قيل: أمر وحي، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب وبإشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة وقال الزبيدي: أوحى إليه: كلمه كلام يخفيه وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى: الوحي الإعلام السريع الخفي إما في اليقظة وإما في المنام.

وبهذا يظهر أن الوحي في الأصل: الخفاء والسرعة، وعلى هذا فالوحي في اللغة: الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى على غيره

وطرقه كما أشار إليها الراغب الأصفهاني آنفًا:

1. الكلام على سبيل الرمز والتعريض.
2. الصوت المجرد عن التركيب.
3. الإشارة ببعض الجوارح.
4. الكتابة.

أنواعه بالمعنى اللغوي:

للوحي أنواع بالمعنى اللغوي وأنواع بالمعنى الشرعي وقد يشتركان في بعضها من حيث الكيفية لكنهما يختلفان من حيث الاعتبار، فالوحي بالمعنى الشرعي خاص بالأنبياء عليهم السلام. وأنواعه بالمعنى اللغوي:

1. إلهام الخواطر أو الإلهام الفطري للإنسان وهو ما يلقيه الله في روع الإنسان السليم الفطرة الطاهر الروح كالوحي إلى أم موسى، قال تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ... }
ومنه الوحي إلى الحواريين، قال تعالى: {وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَىٰ الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}.
2. الإلهام الغريزي للحيوان، كالوحي إلى النحل، قال تعالى: {وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَىٰ النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ}.
3. الأمر الكوني للجمادات، قال تعالى: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زُلْزَالَهَا، وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا، وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا، يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا، بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا}. وقال تعالى: {وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا}.
4. ما يلقيه الله إلى ملائكته من أمر ليفعلوه، قال تعالى: {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتُنَبِّئُوا الَّذِينَ آمَنُوا} وقال سبحانه: {فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ} فالإيحاء الأول من جبريل عليه السلام إلى محمد -ﷺ- والثاني من الله سبحانه وتعالى إلى جبريل عليه السلام. والمعنى: فأوحى جبريل إلى محمد -ﷺ- ما أوحى الله إليه
5. الإشارة السريعة بجارحة من الجوارح كإيحاء زكريا عليه السلام إلى قومه: {فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا}.
6. وسوسة الشيطان، قال تعالى: {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ لِيُؤْمِنُوا بِالْحَدِيثِ الْكَافِرِ} وقال سبحانه: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا}.

الوحي شرعاً:

اختلف العلماء في تعريف الوحي فمنهم من يعرفه بمعنى "الموحي" فيقول هو: كلام الله تعالى المنزل على أحد أنبيائه وقيل: هو ما أنزل الله على أنبيائه وعرفهم به من أنباء الغيب والسرائر.

ومنهم من يعرفه بمعنى "الإيحاء" فيقول هو إعلام الله لأحد أنبيائه بحكم شرعي أو نحوه.

وقولنا: "إعلام" يشمل أنواع الوحي بمعناه الشرعي كما سيأتي بيانها. وقولنا: "الله" قصر للوحي الشرعي بأنه من الله لا من غيره سبحانه

وقولنا: "لأحد أنبيائه" قصر للوحي بالمعنى الشرعي على الوحي للأنبياء. وقولنا: "بحكم شرعي" بيان للموحي به.

وقولنا: "أو نحوه" يراد به القصص والأخبار ونحوها الواردة في القرآن أو السنة مما لم يرد فيها حكم شرعي فهي من الوحي أيضاً.

وظاهر أن الوحي بالمعنى الشرعي لا يخرج عن حد المعنى اللغوي والفرق بينهما هو الفرق بين العام والخاص. فالوحي بالمعنى اللغوي عام يشمل كل "إعلام في خفاء" والوحي بالمعنى الشرعي خاص لا يتناول إلا ما كان من الله تعالى لنبي من الأنبياء، فالوحي بالمعنى الشرعي أخص من المعنى اللغوي لخصوص مصدره ومورده فقد خص المصدر بأنه من الله وخص المورد بالأنبياء

أنواع الوحي بالمعنى الشرعي:

1) ما يكون منامًا.

وهو أول مراتب الوحي كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها: "أول ما بدئ به رسول الله -ﷺ- من الوحي الرؤيا الصالحة -وعند مسلم الصادقة- في النوم، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح الحديث".

وليست الرؤيا خاصة بالفترة الأولى من الوحي بل وقعت بعد ذلك كما قال تعالى: {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ} الآية.

ووقع الوحي بالمنام لإبراهيم عليه السلام كما جاء في القرآن عنه قوله: {يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ، فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ، وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ، قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}.

ومبادرة إبراهيم عليه السلام للامتثال وقول إسماعيل عليه السلام: {افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ}

وقول الله تعالى: {قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا} دليل قاطع على أن رؤيا الأنبياء عليهم السلام وحي وأمر من الله سبحانه لهم عليهم السلام.

وفي ابتداء النبي -ﷺ- من الوحي بالرؤيا الصالحة في المنام تهيئة

استعداد لتلقي الوحي في اليقظة، ويدل على هذا حديث علقمة بن قيس صاحب عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: "إن أول ما يؤتى به الأنبياء في المنام حتى تهدأ قلوبهم، ثم ينزل الوحي بعد في اليقظة".

ولم ينزل من القرآن شيء عن طريق الوحي بالمنام، وقد ظن بعضهم أن سورة الكوثر نزلت في المنام مستدلا بحديث أنس بن مالك رضي الله عنه: "بينما رسول الله -ﷺ- ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسما، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله قال: "أنزلت عليّ آفا سورة" فقرأ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ، إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}.

والصحيح أن هذه الإغفاءة ليست إغفاءة نوم؛ فقد حكى السيوطي عن الرافعي قوله: "وقد يحمل ذلك على الحالة التي كانت تعتريه عند نزول الوحي ويقال لها برحاء الوحي أ. هـ. قلت -يعني السيوطي: الذي قاله الرافعي في غاية الاتجاه وهو الذي كنت أميل إليه قبل الوقوف عليه3. ونقل القسطلاني عن أمالي الرافعي قوله: "الأشبه أن القرآن نزل كله يقظة". وبهذا يظهر أنه لم ينزل قرآن على الرسول -ﷺ- في المنام، والله أعلم.

2) ما كان مكاملة بين العبد وربّه:

قال تعالى: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا} الآية5. ومن هذا النوع تكليم الله سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}

قوله سبحانه: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} ومنه تكليم الله لنبينا محمد -ﷺ- في المعراج

ومنه تكليم الله لنبينا محمد -ﷺ- في المعراج حيث قال: "فأوحى الله إليّ ففرض عليّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة"

3) ما يكون إلهامًا يفنّه الله في قلب نبيه على وجه من العلم الضروري لا يستطيع له دفعًا ولا يجد فيه شكًا، ومنه حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله -ﷺ- قال: "إن روح القدس نفث في روعي 3 أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها، ألا فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب"

4) ما يكون بواسطة أمين الوحي جبريل -عليه السلام- وهذا النوع أشهر الأنواع وأكثرها، وهو المصطلح عليه بـ "الوحي الجلي" ووحي القرآن كله من هذا القبيل ولم ينزل شيء من القرآن على الرسول -ﷺ- بغير هذا النوع كالإلهام أو المنام أو التكليم بلا واسطة يدل على هذا قوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ}

وقوله سبحانه: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ}.

الوحي بجميع أنواعه بالمعنى الشرعي يصحبه علم يقيني ضروري من النبي بأن ما ألقى إليه حق من عند الله ليس من خطرات النفس ولا وسوسة الشياطين، وهذا العلم اليقيني لا يحتاج إلى مقدمات وإنما هو من قبيل إدراك الأمور الوجدانية كالجوع والعطش.

وقد ذكرت هذه الأقسام الأربعة في قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآيَاتِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} وقال الإمام البغوي رحمه الله تعالى في تفسيرها: {وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا} يوحى إليه في المنام أو بالإلهام: {أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ} يُسْمَعُهُ كَلَامَهُ وَلَا يَرَاهُ كَمَا كَلَّمَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: {أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا} إما جبريل أو غيره من الملائكة.

فيه وحي الله سبحانه وتعالى إلى الملائكة عليهم السلام:

ورد ذكر إحياء الله سبحانه وتعالى إلى الملائكة في قوله تعالى: {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا} وقال سبحانه: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} وغير ذلك.

وقد ورد وصف وحي الله إلى الملائكة في السنة النبوية في أحاديث كثيرة منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي -ﷺ- قال: "إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، فـ {إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا} للذي قال: {الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}"

وعن النواس بن سمعان -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ: "إذا أراد الله تعالى أن يوحى بالأمر تكلم بالوحي، فإذا تكلم أخذت السموات منه رجفة -أو قال رعدة- شديدة خوفاً من الله عز وجل، فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل على الملائكة كلما مر بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل: قال الحق وهو العلي الكبير، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل"

وعن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ: "إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا قال: فيصعقون فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل فإذا أتاهم جبريل فزع عن قلوبهم، فيقولون يا جبريل: ماذا قال ربك؟ قال: يقول الحق، قال: فينادون: الحق الحق".

وعلى هذا فإن القرآن الكريم كلام الله أسمع جبريل وبلغه جبريل -عليه السلام- كما سمعه إلى الرسول -ﷺ- وليس لجبريل ولا للرسول إلا البلاغ، كما دلت على ذلك النصوص القرآنية مثل قوله تعالى مخاطباً نبيه عليه الصلاة والسلام: {وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ}.

وقوله سبحانه: {وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي} وقوله سبحانه: {وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهَا آيَاتِنَا يَبَيْتَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنْتَ بَشَرٌ مِثْلُ بَشَرٍ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَّاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ} وقال سبحانه: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ، لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ، فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ} وقال سبحانه: {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ}

فالوحي من حيث التبليغ قسمان:

1- قسم يبلغه جبريل كما سمعه بحروفه وحركاته من غير زيادة ولا نقصان وبلغه الرسول عليه الصلاة والسلام كذلك، وهذا ما أجمع عليه العلماء.

2- وقسم بلغه جبريل -عليه السلام- أو الرسول -ﷺ- أو هما معًا بالمعنى، على خلاف بين العلماء.

يفية وحي الله سبحانه وتعالى إلى الرسل عليهم السلام

كيفية وحي الله -سبحانه- إلى الرسل -عليهم السلام:

وحي الله سبحانه إلى رسله -عليهم السلام- إما أن يكون بواسطة أو بدونها وما يكون بدون واسطة فهو ثلاثة أنواع:

1- ما يكون منامًا.

2- ما يكون كلامًا.

3- ما يكون إلهامًا. وسبق بيان هذه الأنواع.

وما يكون بواسطة هو النوع الرابع وهو ما يكون بواسطة جبريل عليه السلام، ويسمى الوحي الجلي

كيفية وحي الملك إلى الرسول:

وهذا الوحي يقوم على اتصال بين جبريل عليه السلام وهو "مَلَك" وبين الرسول -ﷺ- وهو "بشر"، وحين يكون حديث بين اثنين عربي وعجمي -مثلًا- فإن التفاهم بينهما يحتاج إلى أن يتعلم أحدهما لغة الآخر، والوحي اتصال بين "ملك" و"بشر"، فالأمر يحتاج إلى غلبة البشرية على الملك فيفهم البشر كلامه، أو غلبة الروحانية على البشر فيسهل على الملك تبليغه.

وقد أشار إلى هذا المعنى ابن حجر -رحمه الله تعالى- حيث قال: "إن العادة جرت بالمناسبة بين القائل والسامع، وهي هنا إما باتصاف السامع بوصف القائل بغلبة الروحانية وهو النوع الأول، وإما باتصاف القائل بوصف السامع وهو البشرية وهو النوع الثاني".

وقال الزركشي في البرهان والسيوطي في الإتيان: "وفي التنزيل طريقان: أحدهما: أن النبي -ﷺ- انخلع من صورة البشرية إلى صورة الملكية وأخذه من جبريل، والثاني: أن الملك انخلع إلى البشرية حتى يأخذه الرسول منه والأول أصعب الحاليين

المحاضرة العاشرة بعنوان

تابع الوحي

كيفية وحي الملك إلى الرسول:

وهذا الوحي يقوم على اتصال بين جبريل عليه السلام وهو "مَلَكٌ" وبين الرسول -ﷺ- وهو "بشر"، وحين يكون حديث بين اثنين عربي وعجمي -مثلاً- فإن التفاهم بينهما يحتاج إلى أن يتعلم أحدهما لغة الآخر، والوحي اتصال بين "ملك" و"بشر"، فالأمر يحتاج إلى غلبة البشرية على الملك فيفهم البشر كلامه، أو غلبة الروحانية على البشر فيسهل على الملك تبليغه.

وقد أشار إلى هذا المعنى ابن حجر -رحمه الله تعالى- حيث قال: "إن العادة جرت بالمناسبة بين القائل والسامع، وهي هنا إما باتصاف السامع بوصف القائل بغلبة الروحانية وهو النوع الأول، وإما باتصاف القائل بوصف السامع وهو البشرية وهو النوع الثاني

وقال الزركشي في البرهان والسيوطي في الإتيان: "وفي التنزيل طريقتان: أحدهما: أن النبي -ﷺ- انزع من صورة البشرية إلى صورة الملكية وأخذه من جبريل، والثاني: أن الملك انزع إلى البشرية حتى يأخذه الرسول منه والأول أصعب الحالتين".

ووصف ابن خلدون الحالة الأولى بأنها انسلاخ من البشرية الجسمانية واتصال بالملكية الروحانية، والحالة الأخرى عكسها لأنها انتقال الملك من الروحانية المحضة إلى البشرية الجسمانية.

وبهذا يتبين أن وحي الملك جبريل عليه السلام إلى الرسول -ﷺ- يكون بإحدى حالتين:

• الحالة الأولى:

أن يأتيه مثل صلصلة الجرس، والصلصلة في الأصل: صوت وقوع الحديد بعضه على بعض، ثم أطلق على كل صوت له طنين. ومن صفات هذه الحالة:

1. أنها الأشد على الرسول -ﷺ- كما وصفها عليه الصلاة والسلام
2. أنها شديدة على الرسول -ﷺ- فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سألت النبي -ﷺ- هل تحس بالوحي؟ فقال: "أسمع صلصلة ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إلي إلا ظننت أن نفسي تفيض" وفي مجمع الزوائد: "إلا ظننت أن نفسي تقبض".
3. أنه ﷺ يعرق عرقاً شديداً في هذه الحالة من الوحي كما قالت عائشة رضي الله عنها: "ولقد رأيتُه ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتقصد عرقاً" وقال زيد بن ثابت رضي الله عنه: "كنت أكتب الوحي لرسول -ﷺ- وكان إذا نزل عليه أخذته بُرْخَاءٌ شديدة، وعرق عرقاً شديداً مثل الجمان ثم سري عنه"
4. أن جسمه يثقل ثقلاً شديداً كما روى البيهقي في الدلائل في وصفه للوحي "إن كان ليوحى إلى رسول الله -ﷺ- وهو على ناقته فتضرب على جرانها من ثقل ما يوحى إلى رسول الله -ﷺ- وإن كان جبينه ليطف بالعرق في اليوم الشتاتي إذ أوحى الله إليه".

وعن عائشة رضي الله عنها- قالت: "إن كان ليوحى إلى رسول الله -ﷺ- وهو على راحلته فتضرب بجرانها" 2 أي تمد عنقها من التعب.

وكان الوحي ينزل على رسول الله ﷺ - وهو متكئ على رجل زيد بن ثابت - رضي الله عنه - قال زيد: "حتى تكاد رجلي تنكسر من ثقل القرآن، حتى أقول لا أمشي على رجلي أبداً"

5. أن الرسول في هذه الحالة من الوحي يغط غطيط النائم ويغيب غيبية كأنها غشبية أو إغماء وليست كذلك، وقد روى البخاري أن صفوان بن يعلى - رضي الله عنه - قد جاء إلى الرسول ﷺ - وهو يوحى إليه "وعلى رسول الله ﷺ - ثوب قد أطل به فأدخل رأسه فإذا رسول الله محمر الوجه وهو يغط" 4 الحديث.

وأخرج ابن سعد عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كان رسول الله ﷺ - إذا نزل عليه الوحي يغط في رأسه ويتردد وجهه "أي يتغير لونه"

6. أن للوحي صوتاً يسمعه الرسول ﷺ - مثل الصلصلة ويسمعه الصحابة - رضي الله عنهم - مثل دوي النحل 6 وفي حديث عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: كان إذا نزل على رسول الله ﷺ - يسمع عند وجهه دوي كدوي النحل

قال القسطلاني: "وفائدة هذه الشدة ما يترتب على المشقة من زيادة الزلفي ورفع الدرجات"

"قلت": ولعل هذه الشدة لأن الأجسام أوعية للأرواح ولكل جسم روح تناسب كثافته وحجمه، فإذا غلبت الروحانية على الجسم فإن الجسم ينوء بها فيعاني شدة ويعرق نتيجة الجهد، ويثقل لأن أجسام البشر خلقت لأرواح البشر فإذا سمت الروح وعلت فإن هذا الجسد لا يكاد يحتملها،

• الحالة الثانية:

أن يأتي جبريل عليه السلام إلى الرسول ﷺ - في صورة رجل، كدحية الكلبى أو أعرابي مثلاً فيكلمه كما يكلمه البشر. وقد ورد ذكر هاتين الحالتين في الحديث الذي روته عائشة - رضي الله عنها - أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: "أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول". قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد وإن جبينه ليتفصد عرقاً.

إمكانية وقوع الوحي:

من المعلوم أن العالم ينقسم إلى قسمين:

1- عالم الغيب "أو ما وراء المادة".

2- عالم الشهادة:

وقد ضاقت عقول فئة من الناس فلم تؤمن إلا بعالم الشهادة وأنكرت عالم الغيب، وهذا بلا شك قصور في الإدراك وفي وسائله.

ولو تأمل هؤلاء لأدركوا أن فيما أنكروا ما لا يخفى على ذي لب، وأن في عالم الغيب ما هو أقوى ثبوتاً من بعض ما في عالم الشهادة

أرأيتم ذلك العقل الذي يؤمنون به هل يستطيعون إثبات وجوده بوسائل الإدراك عندهم، وهل يجروا أحدهم على إنكار وجوده.

وتلكم الروح التي تسري في أجسادهم هل يدعي أحدهم إنكارها ولو مجرد دعوى.

هل يجرؤ أحدهم على التسوية بين الجسد الميت والجسد الذي تدب فيه الروح، وهل يستطيع بوسائل إدراكه إثبات وجودها.

ألا فليراجع أولئك وسائل الإدراك عندهم وليعلموا قصورها وليبحثوا عن الخلل فيها. وليعلموا -أيضًا- أن هناك عالمًا آخر أوسع من العالم الذي يعيشون فيه. هو عالم الغيب.

وللتمأمل في عالم الشهادة علامات بارزة وأدلة ثابتة لذوي الأبواب تدل دلالة قاطعة على عالم الغيب.

الوحي من عالم الغيب الذي يجب الإيمان به، ومن صفات المؤمنين أنهم يؤمنون بالغيب، ولمن طلب الأدلة العلمية - للطمأنينة القلبية- على إمكانية وقوع الوحي نذكر منها

1- الحالة الإنسانية نفسها: فالإنسان نفسه أول ما يولد لا يملك من أمر نفسه شيئًا، فلا يملك التحكم في تحريك يده، ولا رأسه، ولا رجله، ولا تحريك بصره يمنة أو يسرة، حتى برازه يخرج بغير إرادته، فلا حول له ولا قدرة ولا سلطان إلا القدرة على تحريك شفثيه للرضاعة!! لأن هناك من كفاه الحاجة إلى كل حركة وهي أمه التي تقوم بكل حاجته، إلا تلك الحركة فلا يمكن أن تقوم بها ولا يمكن أن يستغنى عنها، فمن الذي ألهمه هذه الحركة، ومن الذي علمه!! لا ريب أن قيوم السموات والأرض هو الذي ألهمه وعلمه، فلا عجب إذًا أن يلهم بعض البشر ما تقوم به حياة البشر عامة وصلاح أمرهم.

2- أن بعض الحشرات كالنحل والنمل وغيرهما تأتي بعجائب الأنظمة ودقائق الأمور مما يطول شرحه وبسطه ويدرك المتأمل أنه من المستحيل أن يكون ذلك صادرًا عن تفكير لها أو منبثق عن غريزتها المجردة، بل يوقن أنها لم تصدر في ذلك إلا عن إلهام رباني ووحى إلهي.

فإذا اقتضت رحمة الله الإلهام إلى تلك الحيوانات والحشرات بما تقوم به حياتها هل يستبعد أحد أن يلهم الله أحدًا من البشر ما تقوم به حياتهم وسعادتهم وهم أعز وأكرم. {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} 3- وفي المخترعات الحديثة والمكتشفات العلمية ما يقرب إلى الأذهان إمكانية الاتصال؛ فإذا كان الهاتف مثلًا يمكن للإنسان بواسطته أن يخاطب من في أقصى الأرض، وأن يسمع حديثه لا يخفى عليه منه شيء ولا يسمع الحاضرون إلا دويًا كدوي النحل!! فضلًا عن الإذاعة التي تنقل

الأصوات إلى ما هو أعم وأوسع، والتلفاز الذي ينقل الصوت والصورة، إذا كان هذا بعض شأن البشر وقدرتهم التي أعطاها الله، فهل يجرؤ أحد على إنكار إمكانية اتصال الله بأحد أنبيائه وإسماعه كلامه بواسطة أو بغير واسطة، لا ينكر هذا إلا مكابر معاند.

أدلة وقوع الوحي:

وإذا ثبتت إمكانية وقوع الوحي، فإن الأدلة على وقوعه وتحققه كثيرة:

1. فمن الكتاب:

قوله تعالى: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ}. وقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُون}. وقال سبحانه: {ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ}.

وقال عز وجل: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ}. وغير ذلك من الآيات.

2. ومن السنة:

حديث عائشة رضي الله عنها "أول ما بدئ به رسول الله -ﷺ- من الوحي الرؤيا الصالحة -وفي رواية- الصادقة في المنام ... الحديث

وحديث عائشة رضي الله عنها -أيضاً- أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: "أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس" ... الحديث. وغير ذلك من الأحاديث.

3. والدليل العقلي:

أن النبوة والرسالة ثابتة بأدلة كثيرة وبراهين عديدة، وثبت ذلك يقتضي ثبوت الصدق والعصمة للنبي، وقد أخبر الصادق المعصوم بأنه يوحى إليه فيلزم من ذلك ثبوت وقوع الوحي، فكل ما أخبر به الصادق المعصوم فهو حق وثابت، فلا يبقى بعد ذلك شبهة ولا نحوها في إمكانية وقوع الوحي وتكرره ووقوعه، والله أعلم

المحاضرة الحادية عشر بعنوان

نزول القرآن الكريم

نزول القرآن الكريم:

في القرآن الكريم آيات ورد فيها النص على نزول القرآن الكريم:

1- فمنها ما يدل على نزول القرآن الكريم جملة واحدة:

- أ- {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ}.
- ب- {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ}.
- ج- {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ}.

2- ومنها ما يدل على نزوله مفرقًا:

- أ- {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا}.
- ب- {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ}

أقوال العلماء في نزول القرآن الكريم:

• القول الأول:

أن للقرآن الكريم نزولين: الأول جملة والثاني منجمًا:

النزول الأول:

من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا. وعلى هذا النزول تحمل الآيات التي تدل على نزوله جملة واحدة وهي:

1- {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ - {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ}.

3- {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ}.

والنزول الثاني:

نزوله بعد ذلك منجمًا على الرسول ﷺ.

وعلى هذا تحمل الآيات التي تدل على نزوله منجمًا وهي:

1. {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا}
2. {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا}.

واستدل أصحاب هذا القول بأدلة منها:

1- أن عطية بن الأسود سأل ابن عباس -رضي الله عنهما- فقال: "إنه قد وقع في قلبي الشك في قول الله تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ} وقوله: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} وقوله: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ} وقد أنزل في شوال وذي القعدة وذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: إنه أنزل في رمضان وفي ليلة القدر وفي ليلة مباركة جملة واحدة، ثم أنزل بعد ذلك على مواقع النجوم رسلاً في الشهور والأيام"

2- ما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: فُصِلَ الْقُرْآنُ مِنَ الذِّكْرِ فَوُضِعَ فِي بَيْتِ الْعِزَّةِ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَجَعَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَنْزِلُهُ

3- وما رواه عكرمة عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: "أنزل الله القرآن إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، فكان الله إذا أراد أن يوحى منه شيئاً أوحاه، أو أن يحدث منه في الأرض شيئاً أحدثه".

4- عن سعيد بن جبير عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} قال: "أنزل القرآن جملة واحدة في ليلة القدر إلى السماء الدنيا، وكان بمواقع النجوم، وكان الله ينزله على رسول الله -ﷺ- بعضه في إثر بعض ...".

5- وعن عكرمة عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: "أنزل القرآن جملة واحد إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة وقرأ: {وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا}، {وَفُزْنَا فَرَقْنَا لَهُ لِنَقْرَاهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا}

6- وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: "أنزل القرآن ليلة القدر في رمضان إلى السماء الدنيا جملة ثم أنزل نجومًا".
فهذه الأحاديث كلها موقوفة على ابن عباس وأغلب أسانيدنا صحيحة

• القول الثاني

وقال به الشعبي ومحمد بن إسحاق وهو أن للقرآن الكريم نزولاً واحداً بدأ في ليلة القدر وهي ليلة مباركة في شهر رمضان وعلى هذا تدل الآيات الثلاث: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ}، {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ}، {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} ثم نزل بعد ذلك منجماً في أوقات مختلفة فليس للقرآن إلا نزول واحد منجم

• القول الثالث:

أن للقرآن الكريم نزولين منجمين.

1. الأول:

من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا وذلك في ثلاث وعشرين ليلة قدر ينزل في كل ليلة ما سينزل في عامها.

2. الثاني:

نزوله منجماً على الرسول -ﷺ- وذلك في ثلاث وعشرين سنة.

وقد قلل بعض الباحثين المعاصرين من هذا القول وقلده آخرون وزعم أنه لا دليل عليه، والحق أن هذا القول لعدد من العلماء المعتمدين كالفخر الرازي الذي توقف في الترجيح بينه وبين القول الأول بل أوجب التوقف وقال بهذا القول أيضاً مقاتل بن حيان

قال الحلبي في المنهاج: "أن جبريل كان ينزل منه من اللوح المحفوظ في ليلة القدر إلى السماء الدنيا قدر ما ينزل به على النبي -ﷺ- في تلك السنة إلى ليلة القدر التي تليها إلى أن أنزله كله في عشرين ليلة من عشرين سنة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا"

• القول الرابع:

ما رواه الماوردي وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: نزل القرآن في رمضان وفي ليلة القدر في ليلة مباركة جملة واحدة من عند الله تعالى في اللوح المحفوظ إلى السفارة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا فنجمته السفارة على جبريل في عشرين ليلة، ونجمه جبريل على النبي -ﷺ- في عشرين سنة، وكان ينزل على مواقع النجوم أرسالاً في الشهور والأيام."

وقد استغرب بعض العلماء هذا القول وأنكره، فقال ابن حجر رحمه الله تعالى: "وحكى الماوردي في تفسير ليلة القدر أنه نزل من اللوح المحفوظ جملة واحدة، وأن الحفظة نجمته على جبريل في عشرين ليلة، وأن جبريل نجمه على النبي -ﷺ- في عشرين سنة، وهذا أيضاً غريب" بل احتد ابن العربي -رحمه الله تعالى- فقال: "ومن جهالة المفسرين أنهم قالوا: إن السفارة ألقته إلى جبريل في عشرين ليلة وألقاه جبريل إلى محمد عليهما السلام في عشرين سنة. وهذا باطل، ليس بين جبريل وبين الله واسطة، ولا بين جبريل ومحمد صلى الله عليهما واسطة."

وأما أبو شامة المقدسي فقد وصف ما حكاه الماوردي بقوله: "وكأنه قول ثالث غير القولين المقدمين أو أراد الجمع بينهما فإن قوله: نزل جملة واحدة هو القول الأول، وقوله: فنجمته السفارة على جبريل عشرين ليلة. هو القول الثاني

كأنه فسر قول من قال: نزل في عشرين ليلة، بأن المراد بهذا الإنزال تنجيم السفارة ذلك على جبريل" إلى أن قال عن هذا القول: إنه بعيد مع ما قد صح من الآثار عن ابن عباس: أنه نزل جملة إلى سماء الدنيا

• القول الرابع:

هو القول الأول أن للقرآن الكريم نزولين الأول من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا، جملة في ليلة واحدة هي ليلة القدر وهي ليلة مباركة في شهر رمضان. والنزول الثاني نزوله منجماً على الرسول -صلى الله عليه وسلم- وذلك في ثلاث وعشرين سنة.

قال ابن حجر عن هذا القول: "هو الصحيح المعتمد" بل حكى القرطبي الإجماع على أن القرآن أنزل جملة واحدة.

وقال في موضع آخر: لا خلاف أن القرآن أنزل من اللوح المحفوظ ليلة القدر -على ما بيناه- جملة واحدة فوضع في بيت العزة في سماء الدنيا ثم كان جبريل -ﷺ- ينزل به منجماً في الأوامر والنواهي والأسباب، وذلك في عشرين سنة". ووصف السيوطي هذا القول بأنه "الأصح الأشهر".

"قلت": وتشهد لصحة هذا القول الأحاديث المروية عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وهي كلها صحيحة كما قال السيوطي ولا أثر لكونها موقوفة على ابن عباس؛ لأن قول الصحابي في الأمور الغيبية التي لا مجال للاجتهاد فيها له حكم الرفع.

و إياك أن تفهم أن جبريل عليه السلام أخذ القرآن من اللوح المحفوظ ولم يسمعه من الله، فإن هذا القول باطل. قال ابن تيمية -رحمه الله تعالى-: "فمن قال: إنه منزل من بعض المخلوقات كاللوح والهواء فهو مفتر على الله، مكذب لكتاب الله،

متبع لغير سبيل المؤمنين، ألا ترى أن الله فرق بين ما نزل منه وما نزل من بعض المخلوقات كالمطر بأن قال: {وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً} فذكر المطر في غير موضع وأخبر أنه نزله من السماء والقرآن أخبر أنه منزل منه" في قوله تعالى: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ} ، {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} ، {حَم، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}

وقال ابن تيمية أيضاً: "ثم إن كان جبريل لم يسمعه من الله وإنما وجدته مكتوباً كانت العبارة عبارة جبريل، وكان الكلام كلام جبريل ترجم به عن الله كما يترجم عن الأخرس الذي كتب كلاماً ولم يقدر أن يتكلم به، وهذا خلاف دين المسلمين".

وقد رد سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم مفتي المملكة -رحمه الله تعالى- على قول السيوطي بأن جبريل أخذ القرآن من اللوح المحفوظ فقال: هذه المقالة اغتر بها كثير من الجهلة وراجت عليهم، والسيوطي -رحمه الله تعالى- مع طول باعه وسعة اطلاعه وكثرة مؤلفاته ليس ممن يعتمد عليه في مثل هذه الأصول العظيمة، وهذه المقالة مبنية على أصل فاسد وهو القول بخلق القرآن؛ وهذه مقالة الجهمية والمعتزلة ومن نحا نحوهم، وهذه المقالة الخاطئة حقيقتها إنكار أن يكون الله متكلماً حقيقة" إلى أن قال: "والقائلون بخلق القرآن منهم من يقول: خلقه في اللوح المحفوظ وأخذ جبريل ذلك المخلوق من اللوح وجاء به إلى محمد -صلى الله صلى عليه وسلم-

ومنهم من يقول: خلقه في جبريل، ومنهم من يقول: خلقه في محمد -ﷺ- إلى غير ذلك من أقوالهم".

فهذا ما ينتهي إليه هذا القول ويثول إليه، وإن لم يكن كثير من الناقلين له يقصدونه.

وإذا كان الرأي الراجح أن للقرآن الكريم نزولين فلنفصل القول في كل نزول على حدة.

النزول الأول: نزول القرآن جملة

كيفية:

من المعلوم أن هذا من الأمور الغيبية التي لا يجوز القول فيها إلا بدليل من الكتاب أو السنة، ولا نعرف نصاً خاصاً في كيفية هذا النزول، وإنما وردت النصوص العامة في بيان كيفية وحي الله إلى ملائكته، وقد سبق بيانها في مبحث الوحي.

ومع هذا فقد نقل أبو شامة المقدسي عن بعض التفاسير كيفية ذلك فقال: ورأيت في بعض التفاسير. قال: وقال جماعة من العلماء: نزل

القرآن جملة واحدة في ليلة من اللوح المحفوظ إلى بيت يقال له بيت العزة، فحفظه جبريل عليه السلام وغشي على أهل السموات من هيبه كلام الله، فمر بهم جبريل وقد أفاقوا فقالوا: {مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ} يعني القرآن، وهو معنى قوله: {حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ} فأتى به جبريل إلى بيت العزة

فأملاه جبريل على السفارة الكتبة يعني الملائكة وهو قوله سبحانه وتعالى: {بِأَيْدِي سَفَرَةٍ، كِرَامٍ بَرَرَةٍ} 3 ثم قال أبو شامة: "نقلته من كتاب "شفاء القلوب" وهو تفسير علي بن سهل النيسابوري

دليله:

أما الدليل على نزول القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا فمن القرآن:

أ- قوله تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ}.

ب- قوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ}.

ج- قوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ}.

والمراد بالنزول في هذه الآيات كما مر بنا نزول القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا. ومن السنة: الأحاديث المروية عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقد سبق بيانها

واسطته:

وهذا أيضًا من الأمور الغيبية التي لم أجد نصًا صحيحًا صريحًا في بيانها، ومن المعلوم أن جبريل عليه السلام هو الملك الموكل بالوحي كما قال تعالى: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ} وقال سبحانه وتعالى: {نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ}.

وقد مر بنا قول ابن العربي "ليس بين جبريل وبين الله واسطة، ولا بين جبريل ومحمد عليهما السلام واسطة" والله أعلم.

مدته:

أما المدة التي تم فيها النزول الأول نزول القرآن الكريم جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا، فهي ليلة واحدة هي ليلة القدر، وهي ليلة مباركة من شهر رمضان، قال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} وقال سبحانه وتعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ} وقال عز وجل: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ}

وليس هناك دليل صحيح على تحديد وقت هذه الليلة غير أنها ليلة القدر في شهر رمضان، من غير تحديد للعام الذي كانت فيه، هل كانت قبل ظهور نبوة محمد -ﷺ- أم بعدها، ومع هذا فقد قال أبو شامة: "الظاهر أنه قبلها وكلاهما محتمل" وخالفه السيوطي وقال: "الظاهر هو الثاني، وسياق الآثار السابقة عن ابن عباس صريح فيه".

"قلت": سياق الآثار المذكورة لا يدل على ذلك ولو من بعيد، فضلًا عن أن تكون صريحة فيه.

حكيمته:

ولنزول القرآن الكريم جملة واحدة من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا حكم عديدة، منها ما ذكره أبو شامة المقدسي بقوله: "فإن قلت: ما السر في إنزاله جملة إلى السماء الدنيا؟ قلت: فيه تفخيم لأمره وأمر من أنزل عليه، وذلك بإعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزل على خاتم الرسل لأشرف الأمم، قد قربناه إليهم لننزله عليهم، ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهما منجمًا بحسب الوقائع لهبط به إلى الأرض جملة كسائر الكتب المنزلة قبله، ولكن الله تعالى باين بينه وبينها فجمع له الأمرين: إنزاله جملة ثم إنزاله مفرقًا، وهذا من جملة ما شرف به نبينا ﷺ".

وقال السخاوي: فإن قيل: ما في إنزاله جملة إلى سماء الدنيا؟ قلت: في ذلك تكريم بني آدم وتعظيم شأنهم عند الملائكة، وتعريفهم عناية الله عز وجل بهم ورحمته لهم.

ولهذا المعنى أمر سبعين ألفًا من الملائكة لما أنزل سورة الأنعام أن تزفها وزاد سبحانه في هذا المعنى بأن أمر جبريل عليه السلام بإملائه على الوفيه أيضًا: إعلام عباده من الملائكة وغيرهم أنه علام الغيوب لا يعزب عنه شيء، إذ كان في هذا الكتاب العزيز ذكر الأشياء قبل وقوعها.

وفيه أيضًا: التسوية بينه وبين موسى عليه السلام في إنزال كتابه جملة، والتفضيل لمحمد -ﷺ- في إنزاله عليه منجمًا ليحفظه، قال الله عز وجل: {كَذَلِكَ لِنُنَبِّئَ بِهِ فُؤَادَكَ} وقال عز وجل: {سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى}.

وفيه أيضاً: "أن جناب العزة عظيم، ففي إنزاله جملة واحدة وإنزال الملائكة له مفرقاً بحسب الوقائع، ما يوقع في النفوس تعظيم شأن الربوبية".

"قلت": وبهذا يظهر أن لنزول القرآن الكريم جملة واحدة حكماً عديدة منها:

1. تعظيم شأن القرآن الكريم وتفخيم أمره.
2. تعظيم شأن الرسول -ﷺ- وتشريفه وتفضيله.
3. تكريم أمة محمد -ﷺ- وتعريف الملائكة بفضلها ومكانتها.
4. إعلام أهل السموات أن هذا آخر الكتب المنزل على خاتم الأنبياء.
5. إعلام الملائكة وغيرهم بأن الله يعلم ما كان وما سيكون وأنه علام الغيوب، ففي القرآن ذكر للأشياء قبل وقوعها وبيان لأحداث قبل حدوثها.
6. بيان منزلة محمد -ﷺ- وفضله على سائر الأنبياء عليهم السلام.

"فإن قلت" وما أثر بيان عظمة القرآن ومكانة الرسول -ﷺ- وأمته عنده

القلت: "إن المسلم ليفرح فرحاً شديداً بدعوة أخيه المسلم الصالحة وتعظم مكانتها بقدر صلاح الداعي واستقامته، فإذا كانت الدعوة ممن لم يعص الله طرفة عين وهم الملائكة، كانت من أفضل الدعاء وأحراها بالإجابة.

والملائكة يصلون على النبي -ﷺ- ويستغفرون لأمة محمد -ﷺ- ويدعون لهم، ويحضرون مجالس الذكر ويكثرون في الأزمنة والأماكن الفاضلة، وحضورهم كله خير ودعائهم حري بالإجابة، فعلمهم بمنزلة الرسول -ﷺ- ومكانة أمته وعظمة كتابه

أسباب اختصاص القرآن الكريم بالنزول الأول:

وهو النزول من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا، وذلك أن الكتب السابقة كانت تنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى الأنبياء إلا القرآن الكريم، والله أعلم.

النزول الثاني: نزول القرآن الكريم منجماً:

كيفية:

سبق في مبحث "الوحي" بيان كيفية وحي الملك إلى الأنبياء عليهم السلام وأنواعه، وأن القرآن كله نزل بالوحي الجلي ولم ينزل منه شيء بالمنام أو الإلهام أو التكليم بلا واسطة.

واسطته:

والقرآن كله نزل بواسطة جبريل عليه السلام، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾

دليله:

من الأدلة على نزول القرآن الكريم منجماً:

- 1- قوله تعالى: {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْتٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا}.
- 2- قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا}.
- 3- ما هو معلوم بالضرورة من سيرة الرسول -ﷺ- من نزول القرآن عليه مفرقاً من بعثته إلى وفاته عليه الصلاة والسلام.

مقدار ما ينزل في كل مرة:

ليس هناك مقدار ثابت لما ينزل من القرآن الكريم في كل مرة، ونفصل الحديث على النحو التالي:

- 1- الآيات.
- 2- قصار السور.
- 3- طوال السور.